الترف وأثره

في الدعاة والصالحين



تأليف

محمد بن موسى الشريف



د. محمد موسى الشريف

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٩٧٥٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N

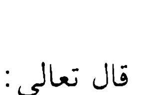
978-977-456-139-6

الأندلس الجديدة

للنشر و التوزيع

18 شارع مطر- احمد حلمي- شبرا مصر- ت: ٠١٠١٠٦٨١٢٥

newandalus@hotmail.com



قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

[هود: ١١٦].

وقال الشاعر:

ليس المروءة أن تبيت منعمًا ... وتظل معتكفًا على الأقداح

ما للرجال وللتنعم إنما ... خلقوا ليوم كريهةٍ وكفاح

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الترف داء عُضال، ومرض مهلك، إن استشرى فى أمة ذهب بعزمها، وأورثها تباطؤًا وخمولاً، وكسلاً ودَعَة، وعلقها بالحياة الدنيا وحببها إليها، والترف إن التصق بشخص ما حتى صار يوصف به كان ذلك إيذانًا بضعفه، وإعلامًا بوهنه، ودليلاً على تراخى شأنه، وعدم ضبطه أمرَه، وأنه آثر لذائذ الحياة على الجد والاجتهاد، واستبدل بالقوة والدأب الضعف والإخلاد، حتى صار فى الحياة أشبه بسقط المتاع، لا يأتى بعمل نافع ولا يُرتجى منه ارتفاع.

هذا هو الترف وما يجره على العامة، لكن كيف هو إن صار علامة على عدد من الصالحين وشارة لبعض الدعاة والمتصدرين، هنا يعظم الخطب ويستشرى الفساد، ،وكلما اتسعت دائرته فيهم، واستوعب منهم رهطًا إثر رهط، وعصبة تِلْوَ عصبة، قل الرجاء فى الإصلاح، وانقطع حبل الأمل فى الفلاح، ليس هذا مبالغة بل هو عين الصواب، وهدا ما خبرته ووقفت عليه من أحوال الأمم وواقع الناس، منذ العصور الغابرة إلى العصر الحاضر؛ قراءةً واطلاعًا ومخالطة.

وهذه الرسالة موجهة لعموم المسلمين فى كل مكان، لكنها تتناول الذين يعيشون فى البيئات الغنية المترفة تناولاً أوليّاً؛ وذلك لأن للبيئة الغنية المترفة

أثرًا كبيرًا فى خمول عدد من الدعاة، ورضاهم بالقليل من هذا الجد، وإيثارهم الراحة والدَعَة على العمل والاجتهاد، والإنسان ابن بيئته، لا يكاد يستطيع التخلص من إسارها إلا قليلاً، والملاحظ المتابع للناتج الإبداعى فى المجالات المتعددة: الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والطبيعية، والعلمية التقنية، والعلمية النظرية، وغير ذلك من مجالات الحياة المتنوعة، من يتابع هذا الإنتاج الإبداعى يجد أنه متحقق فى البيئات الجادة العاملة بنسبة أكبر بكثير من تحققه فى البيئات المترفة الخاملة، التى لا تكاد تلتفت إلا إلى حاجاتها الخاصة وتحقيق شهواتها ومتطلباتها، والدعوة ليست مستثناة مما ذكرت، بل لعل تأثرها بالبيئة أكبر من تأثر سائر المجالات التى ذكرتها بها؛ وذلك لأن الدعوة تجمع بين الجهد العملى الجسدى وبين الجهود الأخرى المتنوعة؛ كالثقافى، والفكرى، والاجتماعى، فعلى الذين يعيشون فى البيئات الغنية المترفة أن يستقبلوا هذا الكتاب بعناية، ويلتفتوا إليه الالتفات اللائق؛ وذلك لأنه يخاطبهم خطابًا هم أولى الناس به، وأقدرهم على تحسسه ومعرفته، وهم أكثر الناس معاناة من هذا الترف وأشدهم تأثرًا منه وبه.

والناظر المتابع يدرك بوضوح الفارق بين الدعوة الإسلامية فى البيئات الجادة المتوسطة الثراء أو التى هى للفقر أقرب، وبين الدعوة فى البيئات المترفة الخاملة، لا يحتاج إدراك ذلك إلى كبير عناء أو مزيد بحث واستدلال، ولعل المتابع لما فى هذه الرسالة يظفر بتصور واضح لما أريد بثه من هَمٍّ أو كشفه من غم.

وبعد، فالرسالة التى كتبتها هى تذكيـر للمبتدى، وتبصير للمنتهى، وتحذير للسادر فى شهواته الغوى، وعبـرة وعظة للمقتدى المؤتسى، عسى أن ينفع الله بهـا ويكتب لهـا القبـول، ويثيـبنى من فـضله مـا هو المرجو المأمـول، والله الموفق[١].

كتبه

محمد موسى الشريف

البريد الإلكترونى: mmalshareef@yahoo.com
الموقع على الشبكة: www.altareekh.com



(١) أرجو من الإخوة والأخـوات أن يضموا هذه الرسالة إلى أربع رسائل أخـرى، حتى تكتمل لهم الفائدة؛ وهى: الهمة طريق إلى القمة، وعجز الثـقات، وظاهرة التهاون فى المواعيد، والثبات، وكلها تدور فى فلك واحد.

المبحث الأول:

معنى الترف وعلاقته بالغنى والسَّرَف

معنى الترف:

جاء في معجم «تاج العروس»: (ت ر ف):

التُّرْفة: النعمة وسعة العيش.

وكفَرِح -أي تَرِف-: تَنَعَّم.

وأترفته النعمة وسعة العيش: أطغته.

وقيل: أترفته: نَعَّمته، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أُتْرِفُوا﴾ [هود: ١١٦]؛ أي: ما نُعِّموا.

وجاء في «لسان العرب»: (ت ر ف):

الترف: التنعم.

وصبي مُتْرَف: إذا كان مُنَعَّمَ البدن، مدللاً.

والمترف: الذي قد أبطرته النعمة[1] وسعة العيش.

وجاء في «معجم مقاييس اللغة»: (ت ر ف):

---

(١) البطر: الطغيان عند النعمة وطول الغنى، وبطر النعمة: لم يشكرها. انظر: «لسان العرب»: (ب ط ر).

يقال: رجل مُترف منعم، وتَرَّفه أهله: إذا أنعموه بالطعام الطيب والشىء يُخَصُّ به.

إذًا يدور معنى الترف على التنعم وسعة العيش، والتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها، وقد يؤدى كل ذلك إلى الطغيان وعدم شكر النعم.

العلاقة بين الترف والغنى:

الغنى ليس متعلقًا بالترف ضرورة؛ أى أن الغنى قد يؤدى إلى الترف ويسوق إليه، لكن ليس ذلك حتمًا؛ فكم من غنى شاكر بعيد عن الترف مترفع عنه، فالغنى مرتبة اقتصادية تشير إلى حجم الثروة التى يملكها فرد من الناس، ولكنها لا تقف عند مجرد الرقم الحسابى بل تترك آثارًا معينة فى نفس الغنىِّ وفى سلوكه، وتظهر فى المجتمع أخلاقًا وسياسة وقانونًا، متميزة عما عند عامة الناس وجمهرتهم(١).

لكن بعض الناس يترفع عن التأثير السلبى بالثروة، ويتخلق بأخلاق الصالحين ويتصف بصفاتهم.

«أما الترف فيبدو أنه صفة زائدة على الغنى، حيث يفهم من تجاوز المصرف المعتاد فى إشباع الحاجة ليصل إلى حد التبذير والإسراف، ويظهر بذخًا فى الثياب والطعام وإداة الركوب والمسكن مثلما هو المألوف من حال المترفين، بينما بإمكان هذا الغنى -مع ثروته الطائلة- أن يقتصر فى مصرفه على المعتاد دون أن يُفرط فى إشباع حاجاته، فالترف صفة أخلاقية مرذولة تضاف إلى الغنى، ومن الممكن أن يكون الإنسان غنيًا ولا يكون مترفًا»(٢).

(١) انظر: الترف فى المنظار القرآنى (٥٠).

(٢) المصدر السابق.

«والفقه الإسلامى لم يُدِنِ الغنى، بل سمح به، وشرع له ما يضمن عدم إساءة استخدامه، فالمال متاع وزينة ، ولكنه ضرورة أيضًا حسب موازين العيش، ووسيلة من وسائل الجهاد فى سبيل الله تعالى، ويكون زينة عند زيادته عن سد الحاجة الضرورية»[١].

والإسلام العظيم ربى شخصية المسلم على طريقة تمنع من تحول الثروة إلى أداة سيطرة وحكم يستبد من خلالها الأغنياء بعامة الناس، وبذلك يكون الغنى مهما فحش مرتبة مقبولة فى الاقتصاد الإسلامى، شرطَ أداء الحق الواجب، والإنفاق فى سبيل الله، والأخلاق الحميدة، والحكم الصالح، وهذا سياج محكم يمنع الغنى أن يتحول إلى ترف وأداة فساد[٢].

وفى الأغنياء من هم صالحون بعيدون عن الترف، لكنهم قلة ، أما الكثرة فقد رتعت طويلاً، وفسقت كثيرًا، وأُترفت حتى الثّمالة، وهذا مشاهد معلوم.

العلاقة بين الترف والإسراف:

العلاقة بين الترف والإسراف علاقة وثيقة مترابطة، فالسَّرَف هو أول ظواهر الترف، وإن شئت قلت: الترف هو أول علامة على الإسراف، وهو مجاوزة الحد الأوسط، والانحدار سريعًا إلى الطرف الأخير أو الطرف الذى يسمى غلواً وإفراطًا، والإسراف يجر حتمًا إلى الترف، وهو من الأخلاق التى تنهار معها أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع[٣].

(١) الترف فى المنظار القرآنى (٥١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) خلق ودين: د. إبراهيم سلامة (١٥٠).

وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقد قال النبى ﷺ: «**كلوا واشربوا، وتصدقوا، والبسوا فى غير مَخِيلَة، ولا تسرفوا**»[١].

وقال الأستاذ أبو زهرة[٢] -رحمه الله تعالى-: «هذا الحديث يبين لنا حدود الترف وحدود الحلال، فحيث كان السرف وكانت المخيلة كان الترف، وحيث كانت الحدود مرعية فى طلب زينة الحياة الدنيا وطعامها من غير سرف ولا مخيلة يكون الحلال».

ثم الترف يؤدى إلى الإسراف، والإسراف يؤدى إلى ضياع الحقوق؛ ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: «ما من سرف إلا ومعه حق مضيع»[٣].

❀❀❀

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك: كتاب الأطعمة، باب: إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبى.

(٢) محمد بن أحمد أبو زهرة: أكبر علماء الشريعة الإسلامية فى عصره، ولد فى المحلة الكبرى سنة ١٣١٦هـ، وتعلم بمدرسة القضاء الشرعى، ثم تولى التدريس فى أماكن مختلفة، وترقى إلى أن عين أستاذًا محاضراً للدراسات العليا فى الجامعة، ثم وكيلاً لكلية الحقوق جامعة القاهرة، ووكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية، له أكثر من أربعين مؤلفًا، توفى بالقاهرة سنة ١٣٩٤هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: (٦/ ٢٥، ٢٦).

(٣) مجلة لواء الإسلام، العدد السادس: ص (٣٨٢، ٣٨٦).

المبحث الثاني:

ذكر بعض ما جاء عن الترف في الكتاب والسنة والآثار

جاء ذكر الترف والمترفين مرارًا في كتاب الله تبارك وتعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، وفي آثار من سلف، فمما جاء في كتاب الله سبحانه قوله: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦].

والمعنى قد اختلف فيه المفسرون؛ فمن قائل: سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، ومن قائل: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، ومن قائل غير ذلك(١).

وقال الأستاذ سيد قطب -رحمه الله تعالى- في تفسير هذه الآية: «المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتَلِغُ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٥/ ٨٥.

الأمة وتسترخى، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحاتها، والآية تقرر سنة الله هذه، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة؛ لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك، وهى المسئولة عما يحل بها؛ لأنها لم تضرب على أيدى المترفين، ولم تصلح من نظامها الذى يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسننًا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتعدد النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته، والله لا يأمر بالفسق؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء، لكن وجود المترفين فى ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت فى طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقًا، وهى التى تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة»[(١)].

وقال الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله تعالى-: «هذا نص صريح قاطع فى أن هلاك الأمم وضعف شأنها وانحلال قواها إنما يكون بالشهوات المتحكمة والأهواء المُردية، وسيطرة ذلك على الذين يوجهونها. . . وفى الآية الكريمة ما يشير إلى أن الترف هو الذى يؤدى إلى الفسق، وأن الفسق هو الذى يؤدى إلى الدمار، فعلى الذين يعملون لرفعة الأمة أن يتجهوا إلى الدعامة التى تقوم

(١) «فى ظلال القرآن»: ٤/ ٢٢١٧.

عليها؛ وهى قوة النفس وسيطرة الإرادة المؤمنة على الأهواء الجامحة، وأنه كلما كان الترف المردى كانت القوى المنحلة، وكلما كانت الإرادة القوية والعزيمة الصادقة والإخلاص المنير كان النصر المبين، والتأييد من الله رب العالمين»[١].

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى النهى عن الترف فى الطعام والشراب واللباس والمسكن وبألفاظ مختلفة، لكن المعنى واحد، وسيرد كثير منها -إن شاء الله تعالى- فى ثنايا هذه الرسالة، وقد كانت حياته ﷺ بعيدة عن كل مظاهر الترف، وكذلك حياة خُلَّص أصحابه -رضى الله تعالى عنهم- جميعًا.

وقد نهى عمر الفاروق -رضى الله عنه- أصحابه أن يأخذوا بشىء من أسباب الترف، خاصة لمن سكن الديار المفتوحة، وخالط أهلها المترفين، وقد كتب إلى بعض عماله العرب على بلاد العجم:

«إياكم والتنعم وزى العجم[٢]، وعليكم بالشمس، فإنها حَمَّام العرب، وتمعددوا[٣]، واخشوشنوا، واخْشَوْشِبوا[٤]، واخْلَوْلِقُوا[٥]، وأعطوا الركب أسنَّتها، وانزوا نزوًا[٦]، وارموا الأغراض»[٧][٨].

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد الخامس، ١٣٨٨هـ، ص ٢٥٩.

(٢) أى: لأنهم يبالغون فى التأنق فى الثياب.

(٣) تمعددوا: اخشوشنوا، كما كان شأن معد بن عدنان، فإنه كان صاحب عيش صلب وشدة.

(٤) اخشوشبوا: كونوا كالخشب صلابة وصبرًا.

(٥) اخلولقوا: البسوا الخلق من الثياب.

(٦) انزوا نزوًا: اقفزوا على الخيل قفزًا.

(٧) الأغراض: ما يرمى عليه بالأسهم تمرينًا وتدريبًا.

(٨) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ص ٢٨٦.

وقال الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله تعالى-: «كان الخلفاء الراشدون يضربون الأمثال في محاربة الترف، فسيدنا أبو بكر كان يعيش عيشة قريبة من الكمال في الرزق، حتى إذا تولى الخلافة عاش عيشة جافة، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يسير في المدينة ومعه دِرَّته(١)، يرهب الأشرار، ويقرب الأخيار، وثيابه مرقوعة، حتى لا تكاد تعد الرقع فيها، وقد كانت خيرات الدنيا كلها تجيء إليه، ثم هذا سيدنا الإمام علي، كرم الله وجهه، كان قبل الخلافة يعيش عيشة ناعمة، وإن لم تكن مترفة، حتى إذا تولى الخلافة علم أنها الابتلاء الأكبر»(٢).

❀❀❀

(١) عصاه.

(٢) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣٨٢هـ، ص (٣٨٧، ٣٨٨).

المبحث الثالث:

أثر الترف فى ضعف الدول والشعوب قديمًا وحديثًا

للترف أثر بالغ السوء فى الدول والشعوب، بل هو معول هدم لطاقاتها وقدراتها؛ حيث يغرى بالإخلاد إلى الأرض، والاغتراف من المباذل والشهوات، والخوض فى سفساف الأمور ودناياها، والتعلق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان المعانى العلية، وعدم المخاطرة بالنفس فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، والنفور من ارتكاب الصعب من الأمور، لا لشىء إلا لأنه صعب على النفوس، والميل إلى السهل من الأعمال مهما قادت إلى ضعف وهوان. . . إلخ.

والترف معول هدم فى الدول القديمة والحديثة على السواء، لا يستثنى أحدًا ولا يبقى ولا يذر؛ وذلك لأن ما ينتج عنه من ضعف وهوان هو سنة كونية لا تتعلق بقديم أو حديث، وهناك أمثلة كثيرة تندُّ عن الحصر، لكنى سأذكر بعضًا منها فقط، فمن أمثلة أثر الترف فى الدول والشعوب قديمًا:

١- الرومان والفرس:

وهما القوتان العظميان، اللتان كانتا تتقاسمان النفوذ والسيادة والتمكين فى الأرض، وتستعبدان الناس استعبادًا عجيبًا، وكانتا ترْفُلان فى النعم العظيمة، حتى جاء نور الإسلام فجعلهما أثرًا بعد عين، جزاء بما كانا يكسبان، قال الأستاذ الندوى(١) -رحمه الله تعالى-:

(١) الندوى: أبو الحسن على بن عبد الحى الحسنى الهندى الندوى، نسبة إلى ندوة العلماء بلكنو =

«بلغ الانحلال الاجتماعى غايتـه فى الدولة الرومية والشرقية. . . ووصلوا فى التبذل إلى أحط الدركات، وأصبح الهمُّ الوحيد اكتساب المال من أى وجه ثم إنفـاقه فى التظرُّف والتـرف وإرضـاء الشهـوات، وذابت أسس الفضـيلة، وانهـارت دعائـم الأخلاق حـتى صـار الناس يفـضلون العزوبة عـلى الحيـاة الزوجية؛ ليقضوا مآربهم فى حرية»(١).

ثم يتحدث الأسـتاذ الندوى عن طرائق عيش المترفين فى الدولتـين الرومية والفارسية فيقول:

«استحوذت على الناس فى الدولتين الفارسية والرومية حياة الترف والبذخ، وطغى عليهم بحر المدنيـة المصطنعة والحياة المزورة، وغرقوا فـيه إلى أذقانهم، فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين فى غفلتهم، لا همَّ لهم إلا اللذة والتهام الحيـاة، وبذخوا بذخًا عظيمًا تخطى القيـاس، ودققوا فى مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشى الحياة تدقيقا عظيمًا جدًا، فكان لكسرى أبرويز اثنا عشر ألف امرأة(٢)، وخمسـون ألف جواد، وشىء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة، ومظاهر الثروة والنعمة. وقد وجد العرب قبابًا تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص، قال العـرب: فما حسبناها إلا طعامًا فإذا هى آنية الذهب والفضة!!».

= فى الهند، عالـم مفكر، أحسن المدافـعة عن حقـوق المسلمين فى الهند، ولـه فى ذلك مواقف مشـهودة، له العديد من المـصنفات التى حاز بعـضها قـصب السبق، مـثل: ماذا خسـر العالم بانحطاط المسلمين، نال جائزة الملك فيصل العـالمية، توفى سنة ١٤٢١هـ عن سن عالية، رحمه الله تعالى.

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص٣١.

(٢) كذا وردت.

ووصف المؤرخون العرب بساط كسرى الذى أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا: «هو ستون ذراعًا فى ستين ذراعًا، بساط واحد مقدار جريب، أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب، فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير، وفى حافاته كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونُوَّاره[1] بالذهب والفضة وأشباه ذلك، وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشراب شربوا عليه فكأنهم فى رياض».

ثم قال: «كذلك كان الشام فى الدولة الرومية وحواضرها... وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم فى الشام بذخًا عظيمًا، وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهية شيئًا كثيرًا، وبلغ من الترف والأناقة شأوًا بعيدًا.

وكان الأمراء والأقيال[2] والأغنياء، ورجال البيوتات الشريفة، وأفراد الطبقة الوسطى؛ على آثار الملوك؛ يحاولون أن يقلدوهم فى لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم، وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعًا عظيمًا، وتعقدت المدنية تعقدًا عظيمًا، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة... ودرج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة، ورضعوا بلبانها، ونشأوا عليها... وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى فى ساعة عصيبة، وفى فقر واضطرار؛ ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فر من المدائن أخذ معه ألف طاهٍ، وألف مغنٍ، وألف قيِّم للنمور، وألف قيم

(١) زهره.

(٢) الأقيال: جمع قَيْل. أى: الرؤساء.

للبزاة[١]، وآخرين، وكان يستقل هذا العدد، واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر، فأتى به فى قدح غليظ، فقال: لو مت عطشًا لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا!! فأتى به فى إناء يرضاه»[٢].

أما سائر الشعب فكانوا «يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب. . . ويعيشون عيش البهائم، لا حظ لهم فى الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم، ولا هم لهم إلا الأكل والعلف، فإذا سئموا هذا العيش المر تعللوا بالمسكرات والملهيات، وإذا تنفسوا من هذا العناء رتعوا فى المحرمات، ورغم هذا الجهد فى المعيشة يجهدون أنفسهم فى تقليد رجال الطبقة العليا فى كثير من أساليب حياتهم. . . وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء والأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية فى العالم المتمدن المعمور بين غنى مُطْغٍ وفقر مُنْسٍ»[٣].

٢- اليونان:

قال الأستاذ الألمانى الدكتور «هاس»: «المدنية اليونانية هى مركز المدنية الغربية الحاضرة، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءًا متناسبًا، وكان المثل الكامل عندهم الجسم المتناسب، وليس هذا إلا اعتدادًا بالمحسوسات اعتدادًا كبيرًا، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقص وغيره. . . وكان الدين خلوًا من الروحانية المعنوية»[٤].

(١) الصقور.
(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ص (٧١-٧٤).
(٣) المصدر السابق ص (٧٥، ٧٦).
(٤) المصدر السابق ص (١٥٨).

وقال «أبوليس» المؤرخ اليونانى: «وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء»[١].

ثم كان عاقبة المدنية اليونانية السقوط، وورثها الرومان.

٣- الأندلس:

والذى جرى على الأندلس وأهله من العاقبة السيئة والنهاية المفجعة يحمل كل عاقل على التفكير مليًا: كيف ينجو من هذا البلاء، وكيف يتجنب هذه العاقبة الخطيرة والإدالة الذليلة، والهوان العريض، والشر المستطير، ومظاهر الترف الفاحش -الذى أدى إلى الهوان، والطرد من الأرض الجميلة، والحرمان من النعمة الجليلة- كثيرة متنوعة، فمن ذلك:

أ- العناية المفرطة بالعمران:

وهذا سر دفين من أسرار سقوط الدول؛ حيث تصرف الأموال الهائلة على تشييد البنيان، وقد يرتكب من المظالم فى سبيل ذلك ما الله تعالى به عليم، ثم يعقب كل ذلك فساد عريض وهوان للشعب على الله وعلى الناس، وانظر إلى عبد الرحمن الناصر[٢]؛ الخليفة الأندلسى، كيف بنى مدينة الزهراء، حيث قسم جباية الدولة إلى ثلاثة أثلاث: ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث مدخر، وقد استنفدت الزهراء ثلث إيراد الدولة لمدة ١٧ سنة، ولم يتم بناؤها

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص (١٥٩).

(٢) عبد الرحمن الناصر: بن محمد بن عبد الله، المدعو أمير المؤمنين، الناصر لدين الله، الأموى المروانى، لما بلغه ضعف الخلافة تسمى بأمير المؤمنين، كان كثير الغزو حتى خافه الروم، توفى سنة ٣٥٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: (٨/ ٢٦٥-٢٦٩).

نهائيًا إلا بعد أربعين سنة، وانشغل الخليفة وولى عهده بها انشغالاً عظيمًا، وجلب الخليفة لها الرخام من تونس وقرطاجنة إفريقيا، ثم دارت الأيام فلم تعمر مدينة الزهراء أكثر من ستين عامًا؛ حيث ابتدأ فيها الخراب فى أيام الفتن التى أصابت آخر الدولة الأموية، ثم انمحت شيئًا فشيئًا حتى صارت اليوم يبحث عنها بوسائل الحفريات الحديثة[١].

وكان عبد الرحمن الداخل[٢] قد بدأ بناء المسجد الجامع فى قرطبة سنة ١٦٩هـ، وأنفق فى سبيل ذلك ثمانين ألفًا ما بين فضة وذهب، ثم زيد فيه بعده زيادات كثيرة[٣] من «مصابيح وثريات... وصنائع ونقوش وزخارف لا يشبه بعضها بعضًا، وبلاط نادر، وقبلة يعجز الواصفون عن وصفها، فيها من الفسيفساء المذهب الكثير... وفى جهتى المحراب أربعة عمدان لا تقوَّم بمال»[٤].

وصارت مدن الأندلس تتبارى فيما بينها وتتسابق فى بناء القصور وإنشاء المدن الجديدة، وإنشاء الضياع الواسعة، وتزيين المدن بالتماثيل -على أنها

(١) «التكاثر المادى وأثره فى سقوط الأندلس»: بحث للدكتور عبد الحليم عويس، منشور فى كتاب «الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة»: ص (٢١١-٢١٣).

(٢) عبد الرحمن الداخل: هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى المروانى المشهور بالداخل، أمير الأندلس وسلطانها، فر من مصر آخر سنة ١٣٢هـ لما سقطت الخلافة الأموية واتجه إلى برقة، فبقى بها خمس سنين، ثم دخل المغرب، ومنها إلى الأندلس وتملكها ثلاثًا وثلاثين سنة، وبقى الملك فى عقبه إلى سنة أربعمائة، توفى سنة ١٧٢هـ، وعاش ستين سنة. انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٨/ ٢٤٤-٢٥٣).

(٣) «التكاثر المادى وأثره فى سقوط الأندلس»: ص (٢١٣).

(٤) المصدر السابق: ص (٢١٥).

مخالفة واضحة للشرع المطهر- فهذا المقّرى[١] يصف مدينة من مدن الأندلس فيقول: «ولها أقواس من الحجارة المقربصة[٢]، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة»[٣].

ب- الإسراف فى طلب المال وإنفاقه إلى حد كبير مهلك:

والإسراف والتكالب على المال من أهم أسباب هلاك الأمم أو ضعفها، وهذا هو الذى حصل فى الأندلس، حيث «كان التكالب على المادة ومظاهر الثراء والبذخ، هى السمات الغالبة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الأندلس... وكان هذا النمط من الحياة سببًا من أسباب قيام الفتنة الطائفية التى مزقت وحدة الأندلس إلى ٢٢ دولة!!»[٤].

«وكان الناس يجهزون بناتهم بمبالغ ضخمة ومظاهر فخمة؛ حتى إن المنصور بن أبى عامر[٥] قد قصده أحد الوجهاء لطلب مال يجهز به ابنته، فملأ ابن أبى عامر حجره بالمال»[٦].

(١) المقرى: أحمد بن محمد بن أحمد، أبو العباس المقرى التلمسانى، المؤرخ الحافظ، ولد فى تلمسان بالجزائر سنة ٩٩٢هـ ونشأ بها، ثم انتقل إلى فاس، فكان خطيبها وقاضيها، ثم انتقل إلى القاهرة وتوفى بها سنة ١٠٤١هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ١/ ٢٣٧.

(٢) لم أقف على معناها.

(٣) التكاثر المادى نقلاً عن «نفح الطيب»: ١/ ١٦٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المنصور بن أبى عامر: محمد بن عبد الله بن عامر المعافرى القحطانى، أبو عامر، المعروف بالمنصور بن أبى عامر، أمير الأندلس فى دولة المؤيد الأموى، وأحد الشجعان الدهاة، ولد سنة ٣٢٦هـ، وقدم قرطبة شابًا طالبًا للعلم، فبرع وتقلب فى مناصب الدولة من شرطة وقضاء وغيرها، ولما مات المستنصر الأموى كان المؤيد صغيرًا، وخيف الاضطراب، فضمن ابن أبى عامر لأم المؤيد سكون البلاد واستقرار الملك لابنها، وقام بشئون البلاد، وغزا وفتح، ودامت له الإمرة ٢٦ سنة، غزا فيها الإفرنج ٥٦ غزوة، وكان المؤيد معه صورة بلا معنى، توفى فى إحدى غزواته سنة ٣٩٢هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٦/ ٣٢٦.

(٦) «التكاثر المادى»: ص (٢١٦، ٢١٧) بتصرف.

وكان كثير من الأثرياء فى قصورهم معتكفين على الموسيقى والفتيات الحسان، وينفقون فى سبيل ذلك المبالغ الطائلة، حتى صارت الأسر الغنية لا تكاد همومها تتجاوز الاهتمام بمجالس الأنس والشراب والزهور والنساء والغلمان[١].

وأدى هذا التكاثر إلى الظلم فى تحصيل المال، فهذا رجل يدعى مباركًا وآخر يدعى مظفرًا كانا عبدين، ثم ارتقيا حتى ملكا بلنسية وشاطبة، وصارا فى سبيل تحصيل الأموال للذائذ والشهوات يظلمان الرعية ظلمًا فادحًا، ويقرران على الناس مبالغ ضخمة جدًا كل شهر يستخرجانها بأشد أنواع العنف، حتى صارت الرعية تخرج من المدينتين، وآل أمرهما إلى الخراب بعد ذلك.

وانظر ما قاله ابن عذارى المراكشى[٢] فى هذا الأمر:

«أما مبارك والمظفر فقد سلكا سبيل الملوك الجبارين فى إشادة البناء والقصور... إلى أبعد الغايات ومنتهى النهايات، واشتمل هذا الاتجاه على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما، فاحتذوا فعلهما فى تفخيم البناء... لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ، كأنهم من الله على عهد لا يخلفه... واتسع الخرق فى عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قدرت نفقته على منزله بمائة ألف دينار[٣] وأقل منها وفوقها... حتى بلغوا من ذلك

(١) «التكاثر المادى»: ص ٢١٧.

(٢) ابن عذارى المراكشى: هو أبو عبد الله محمد المراكشى؛ المعروف بابن عذارى؛ مؤرخ أندلسى الأصل، من أهل مراكش، توفى حدود سنة ٦٩٥هـ، من آثاره: البيان المغرب فى أخبار المغرب. انظر: «معجم المؤلفين»: ١٢/١٢.

(٣) وهذا مبلغ عظيم جدًا يعادل اليوم فى قوته الشرائية عشرات الملايين، بل مئاتها.

البُغْـية، فمـا شئت من طرف رائق[(١)]، وملبس رفيع جليل، وخـادم عجيب نبيل، وآلات مشاكلة، وأمور متقابلة، تروق الناظرين. . . وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعـيم. . . فانغمـسا فى النعـيم إلى قمم رأسـيهمـا، وأخلدا إلى الدعة، وسارعا فى قضاء اللذة حتى أربيا[(٢)] على من تقدم وتأخر»[(٣)].

وهذا مثال فـقط على الإسراف فى طلب المال وإنفاقه،وإلا فالأمثلـة كثيرة مبكية.

وهكذا انهارت المدن الأندلسـية الواحدة تلو الأخرى؛ فـهل كان ذلك واعظًا لأمراء وملوك المدن التى نجت إلى حين؟! لا والله، فهؤلاء بنو الأحمر أصحاب آخر مـعقل من معاقل المسلمـين فى الأندلس؛ غرناطة، هؤلاء قد سـارعوا فى إنشاء قصر الحمراء، ومَوَّهوا حيطانه بالزخارف الذهبية البديعة، وحصنوا أسواره بألواح المرمر، وزُين القـصر بالأشكال المصبـوبة ذات الهندسة العربية الفـائقة، وحاز القصر على إعجاب فنانى العـالم إلى اليوم، لكن ما فائدة كل ذلك، بعد سقوطه فى يد النصـارى؟! ولو عمد حكام غرناطة إلى إنفاق أمـوال بناء القصر على أمر الجهاد وصناعة عظماء الرجال لكان أولى وأجدى[(٤)].

ضعف الشعب وسقوطه:

ولهذه الأسـباب التى ذكرتهـا مجتـمعة ضـعف الشعب الأندلسى ضعـفًا عجيبًا، فصاروا -فى معظم أحيانهم- متهاونين مستسلمين، لا يأخذون الأهبة

---

(١) النساء الجميلات.

(٢) زادا.

(٣) «التكاثر المادى»: ص (٢١٧، ٢١٨). نقلاً عن «البيان المغرب»: (٣/ ١٦٠، ١٦١، ١٨٠).

(٤) المصدر السابق: ص (٢١٩، ٢٢٠)، بتصرف.

للقتال، ولا يتحمسون للقاء العدو ومقاومته، لقد خرج أهل بلنسية من مدينتهم لقتال النصارى عندما حاصروهم دون تأهب ولا حذر، وهم فى ثياب الزينة والترفه. . . فهزموا هزيمة قاصمة، وقتل منهم يومئذ أعداد لا تحصى، فهجاهم أحد الشعراء هجاء لاذعًا بقوله:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ حلل الحرير عليكمُ ألوانًا[١]

«وعندما أفلتت زمام الأمور من أيدى أمراء بنى الأحمر، وأخذت المدن والحصون تتهاوى أمام جيش النصارى، بدأ الأهالى يستسلمون دون مقاومة تذكر، ويسلمون الحصون للنصارى دون أن يكلفوهم أى قتال أو خسارة»[٢].

وكل هذا قد أدى إلى سقوط الأندلس سقوطًا مريعًا، هذا وإنى لم أذكر من أسباب السقوط إلا ما كان سببه الترف، أما غير ذلك نحو الظلم الشديد واختلاف الكلمة والخيانة والجبن، فهذا ما لم أتعرض له، وهو شىء يفتت الأكباد ويستدعى ماء العيون[٣].

٤- بنو العباس:

وهؤلاء كانت دولتهم قوية فتية، ثم أضعفها الترف إضعافًا متدرجًا حتى بلغ غايته بسقوطهم أمام التتار؛ ذلك السقوط المخزى المريع الذى لم يكن مثله سقوط فى تاريخ الدول الإسلامية، وانظر إلى ما كانوا يصنعون تعرف لماذا سقطوا وذلوا وهانوا:

---

(١) «أسباب سقوط الأندلس الاجتماعية والاقتصادية»: بحث للدكتور محمد رضوان الداية ومهجة الباشا، مجلة بحوث جامعة حلب، العدد العاشر، ١٩٨٧م، ص (٩٩، ١٠٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر إن شئت رسالة «استجابات إسلامية لصرخات أندلسية» لواضع هذه الرسالة، ففيها شىء من التفصيل.

- فهـذا المأمون[١] -وهو من آخر أقـوياء الخلفاء- قد عـقد على بوران[٢] بنت الحسن بن سهل وزيره، فماذا صنـع فى حفلة عُرسه؟ أو إن شئت قلت: ماذا صُنع له؟

جرت تلك الحـفلة فى منازل الحسن بن سهل السرخـسى؛ التى كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط، وفم الصلح اسم نهر كـبير كان فوق واسط، عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران، تزوجها المأمـون لمكانة أبيها عنده، واسمها الحقـيقى خديجة، وبوران لقبها، احتفل أبوها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله فى عصر من عصور الجاهلية والإسلام، فقد سافـر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتـاب والوجوه إلى فم الـصلح، فنثر الحـسن بن سـهل بنادق المسك على رؤوسهم، فيهـا رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصـفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها، فـيقرأ ما فى الرقعة، فإذا علم ما فى الرقعة مضى إلى الوكـيل المرصد لذلك، فيدفعها إليه ويتـسلم ما فيها؛ سواء كان ضيـعة، أو ملكًا آخر، أو فرسًا، أو جارية، أو مملوكًـا، ثم نثر بعد ذلك على سائـر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنـبر، وأنفق على المأمون وقواده وجـميع أصحابه وسائر من كان معـه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقًـا لا يحصى، حتى على الجـمالين والمكارية[٣] والملاحين وكل من ضمه عسكره، ولم يكن فى العسكر من يشترى شيئًا لنفسه ولا لدوابه.

---

(١) المأمون: الخليفة أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٧٠هـ، وتوفى سنة ٢١٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٧٢-٢٩٠).

(٢) بوران: من أكمل النسـاء أدبًا وأحسنهن أخلاقًا، اسـمها خديجة، وعُـرفت ببوران، ولدت سنة ١٩١هـ، وتوفيت ببغداد سنة ٢٧١هـ، رحمها الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٢/ ٧٧.

(٣) الذين يستأجرون لقضاء الحاجات.

وذكر الطبرى[١] أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يومًا، يعد له فى كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم[٢]، وكان رحيل المأمون نحو الحسن بن سهل؛ أى إلى فم الصلح، لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومائتين.

وفرش الحسن للمأمون حصيرًا منسوجًا بالذهب، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة.

وقال الطبرى أيضًا: دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر: كم؟ فقالت: ألف حبة؛ فوضعها فى حجرها وقال لها: هذه نِحْلتك[٣]، وسلى حوائجك، فقالت لها جدتها: كلمى سيدك فقد أمرك، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدى[٤]؛ عمه، والسماح بالحج لأم جعفر، وهى الست زبيدة، فقال: قد فعلت، فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية؛ وأوقدوا فى تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منّاً فى تور من ذهب[٥]، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا إسراف[٦]!!

وقد قال الشعراء والخطباء فى ذلك فأطنبوا، ومما يستظرف قول محمد بن حازم الباهلى:

(١) الطبرى: محمد بن جرير بن يزيد الطبرى، أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام، ولد فى آمل طبرستان سنة ٢٤٤هـ، ثم استوطن بغداد، وتوفى بها سنة ٣١٠هـ، رحمه الله تعالى، له عدة كتب نافعة، وكان مجتهدًا لا يقلد أحدًا، فصيحًا. انظر: «الأعلام»: ٦/ ٦٩.

(٢) أى: خمسين مليون درهم، وهذا مبلغ هائل ذلك الوقت.

(٣) عطيتك.

(٤) إبراهيم بن المهدى: إبراهيم بن محمد بن أبى جعفر الهاشمى العباسى، كان فصيحًا، بليغًا، عالمًا أديبًا، شاعرًا، رأسًا فى الموسيقى، توفى سنة ٢٢٤هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء»: (١٠/ ٥٥٧-٥٦١).

(٥) إناء من ذهب. انظر: المعجم الوسيط (ت و ر).

(٦) سبحان الله، والذى مضى كله ألم يكن إسرافًا؟!

بـارك الله لـلحـــــسن ولـبـــــوران فـى الخـتن

يابـن هارون قـــد ظـفـــر ت ولـكـــن ببـنـت مـــن

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون، قال: والله ما ندرى أخيرًا أراد أم شرًا؟ وقد أمر المأمون للحسن عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم(١)، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه، وقد كان الحسن كثير العطاء للشعراء وغيرهم، فقصده بعض الشعراء وأنشده:

تقـــول خليلتى لما رأتنى أشد مطيتى من بعد حلٍّ

أبعـــد الفضل ترتحل المطايا فقلت نعم إلى الحسن بن سهلِ(٢)

وقد كانت حياتهم مليئة بالترف والإخلاد إلى الأرض، والرضا بمباهجها، والتوسع فى ذلك توسعًا عظيمًا؛ إذ بنوا بغداد على هيئة عظيمة، وتوسعوا فى بناء القصور ذات الأواوين(٣) الضخمة، وتفننوا فى البناء والزينة، والزخارف والنقوش، والستائر والبسط، والأثاث، والتماثيل والتحف، والأوانى، وفى الطعام والشراب، كما تأنقوا فى الجواهر والزينة، والطيب والملبس والثياب، متأثرين بالأزياء الفارسية، واهتموا بأدوات الترويح واللعب: كسباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل، ولعبة الصولجان، والشطرنج، والنرد، والصيد بالبزاة والصقور والشواهين، والكلاب والفهود، وهذا يدل على الترف والبذج الذى كان يتمتع به الخلفاء، وأبناء البيت العباسى، والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة، والتجار، وبعض الشعراء والكتاب، والمغنين، والعلماء.

(١) أى: عشرة ملايين.

(٢) نقلاً عن مقالة بمجلة الرسالة اسمها: مواكب الأعراس فى عهد بنى العباس، عدد ٥٢٧، سنة ١٣٦٢هـ، ص (٦٣٢، ٦٣٣)، وقد أورد الأستاذ حكايتين أخريين مليئتين بأسباب الترف.

(٣) جمع إيوان؛ وهو القاعة.

أما الشعب فيكدح ويعيش فى بؤس وشقاء، ويتحمل أعباء الحياة إلى غير حد، وفئة قُتر عليها فى الرزق، فهى تشقى إلى غير حد، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم.

وكانت خزائن الدولة مملوءة تحمل إليها الأموال والذهب والفضة من جميع أرجاء الدولة، وتُروى فى ذلك روايات كثيرة تبين مدى الثراء والترف والنعيم، وظاهر الإنفاق على الجوارى والقيان والمغنين والحفلات، والحاشية والأعوان، وتبين جود الخلفاء، والوزراء، والولاة، والقواد، وكرمهم وعطاياهم للشعراء وغيرهم، ونفذوا إلى طائفة من الآداب: كآداب المائدة، واقتبسوا كثيرًا منها عن الفرس، وآداب المسامرة والمنادمة. . . وكان هذا البذخ، وما صاحبه من اعتصار الشعب، هو السبب الحقيقى فى كثرة الثورات على العباسيين.

أما العامة فكانت تعيش حياة فقيرة قاسية، تعانى البؤس والضنك والكفاف، وملاهيهم الفرجة إلى الحوائين والقَرَّادين، والاستماع إلى القُصَّاص الذين يروون القصص الخيالية، والحكَّائين الذين يحكون فى دقة لهجات سكان بغداد، ونازليها من أعراب، ونبط، وزنوج، وهنود، وخراسانيين، وروم.

وكان الرقيق والجوارى والغناء من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية، فقد كثر الرقيق بسبب كثرة من كانوا يُؤسرون فى الحروب، فقد كانت تجارة النخاسة رائجة ورابحة، وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر من رقيق الرجال، وامتلأت بهن دور النخاسة، والقصور والدور، وكن من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثَّرن آثارًا واسعة فى أبنائهن ومحيطهن؛ سواء كانوا خلفاء، أو غير خلفاء، كما كان لهن أثر كبير على الشعراء الذين



يرتادون دور النخاسة، وكان بعضهن مثقفات بفنون الأدب وقول الشعر، فيملأن على الشعراء قلوبهم وعقولهم.

وتسابق الأغنياء على اقتناء القيان والمغنيات، ودفع الأثمان الباهظة فيهن، ومن لم يقتن جارية أو قَيْنة يستطيع استئجارهن ممن يرعاهن ويعلمهن، وكثيرات كن يضربن على الآلات الموسيقية، ويحسنّ الرقص[١].

أما طعامهم وشرابهم فحدث ولا حرج عن ترفهم وإسرافهم وتبذيرهم، وكان يُحمل إليهم مع خراج الرَىِّ الرمان والخوخ، ومن أصبهان والموصل العسل والشمع، ومن الكوفة البنفسج، ومن جُرجان النرجس، ومن طَبَرِسْتان الأُتْرج، ومن مكة والمدينة والحجاز العنبر والزبيب، ومن الأهواز السكر، ومن فارس ماء الورد والزبيب الأسود والرمان والسفرجل والتين، ومن دمشق التفاح، وكانوا إذا اشتهوا شيئًا ولم يكن له نصيب فى الخراج أرسلوا يطلبونه، فقد كانوا يطلبون ألوان اللحوم والطيور ولو بَعُد مكانها فتأتيهم على البريد، وينفقون فى ذلك الأموال الكثيرة.

وكان الطباخون يهيئون لهم من الألوان الكثيرة ما لم يُعرف أو يُسمع به من قبل.

وأحد الخلفاء قد طلب يومًا لونًا من طعام فقيل له: ما عُمل اليوم، فأنكر ذلك وقال: يجب ألا يخلو المطبخ من كل شيء حتى إذا طُلب لم يتعذر، ووقّع إلى ديوان النفقات بإقامة ذلك اللون إلى أن يرد التوقيع بقطعه، فكان يُعمل ويُنفق عليه دراهم كثيرة، ولا يحضر المائدة؛ توقعًا أن يطلبه، فيقدم عند

(١) شوقى ضيف؛ سيرة وتحية: الدكتور طه وادى ص (٧٧، ٧٨)، والكلام نقله الدكتور عصمت غوشة من مؤلفات د. شوقى ضيف.

الطلب كما رَسَم، فمضى على ذلك سنة، ولم يطلبه وهو يُصنع، وكان هذا اللون جَزُورِيةً، وكان الطباخ يذبح فى كل يوم قَلُوصًا![١][٢].

ولم يكن هذا شأن كل خلفاء بنى العباس لكن كان هذا السمة الغالبة لأكثرهم، ثم إنه لا ينبغى أن نسأل بعد كل ذلك الذى ذُكر: لماذا سقطت دولة بنى العباس؟!

تلخيص لما سبق ذكره:

ما أجمل وأصدق ما قاله الأستاذ أبو الحسن الندوى -رحمه الله تعالى- معبرًا عن حال الأمة آنذاك، ولماذا سقطت، بعبارة وجيزة جامعة:

«لقد أتى على العالم العربى عهدٌ فى التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد؛ وهو شخص الخليفة أو الملك، وحوله حفنة من الرجال هم الوزراء وأبناء الملك، وكانت البلاد تعتبر ملكًا شخصيًا لذلك الفرد السعيد، والأمة كلها فوجًا من المماليك والعبيد، ويتحكم فى أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم، ولم تكن الأمة التى كان يحكم عليها إلا ظلاً لشخصه، ولم تكن حياتها إلا امتدادًا لحياته.

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها... كذلك تضمحل هذه الأمة فى شخص هذا الفرد، تذوب فيه، وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة، ولا حرية لها ولا كرامة.

وكان هذا الفرد هو الذى تدور لأجله عجلة الحياة، فلأجله يتعب الفلاح،

---

(١) القلوص من الإبل: الفتية المجتمعة الخلق، وذلك من حين تركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هى ناقة. انظر: المعجم الوسيط (ق ل ص).

(٢) من مقال الدكتور صلاح الدين المنجد بمجلة الرسالة: العدد ٦٥٨، سنة ١٣٦٥هـ، (١٦٣)، والخليفة هو المعتضد.

ويشتغل التاجر، ويجتهد الصانع، ويؤلف المؤلف، وينظم الشاعر، ولأجله تلد الأمهات، وفى سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش، بل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها، ويقذف البحر نفائسه، وتستخرج كنوز الأرض خيراتها»(١).

وكانت الأمة -وهى صاحبة الإنتاج وصاحبة الفضل فى هذه الرفاهية كلها- تعيش عيش الصعاليك، أو الأرقاء المماليك.

هذا هو العهد الذى ازدهر فى الشرق طويلاً، وترك رواسب فى حياة الأمة ونفوسها... لم يكن عهدًا إسلاميّاً ولا عهدًا طبيعيّاً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذى بُعث فيه محمد ﷺ فسماه الجاهلية، ونعى عليه، وأنكر على ملوكه ككسرى وقيصر، وعلى أثرتهم وترفهم أشد الإنكار، إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار فى أى مكان وفى أى زمان، ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة فى عقلها، أو فاقدة الوعى والشعور، أو ميتة النفس والروح»(٢).

الترف فى الدول والشعوب فى العصر الحديث:

قد نخر سوس الترف فى عدد من الدول الغنية فى العصر الحديث، وأورثها ذلاً وهوانًا، وخَوَرًا وضعفًا، فلم تعد تقوى على الوقوف فى وجه أعاصير الأحداث، واجتاحها صنوف من الهوان، وسقطت سمعتها، وهان

(١) لئن بالغ الأستاذ -رحمه الله- فى بعض جوانب سرده، فقد صدق فى أخرى، بل قصَّر قليلاً فى إيراد ما هو أعظم وأخطر من الوقائع والأحداث.

(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ص (٢٨٨، ٢٨٩).

على الناس شأنها، والأمثلة على ذلك كثيرة، أذكر واحدًا منها مثالاً على الدول الغربية، والأمثلة الباقية لدولنا العربية الإسلامية:

١- فرنسا:

حيث لم تستطع الوقوف أمام ألمانيا فى الحرب الثانية، واجتاحتها العساكر الألمانية حتى وصلت إلى باريس بدون عناء يذكر، يقول المشير مونتجمرى: فى الحرب يكون العدو ظاهرًا واضحًا، أما فى زمن السلم فإن الأمة تواجه عدواً أشد خبثًا هو الضعف من الداخل، وإذا أمسك الترف بتلابيب الأمة وسيطر على رجولتها وطبيعتها، وإذا أهملت الصفات الحربية[١]، فسوف يكون ذلك سببًا فى سقوط هذه الأمة، وإذا كنا فى حاجة إلى مثل على ذلك من العصر الحديث فأمامنا فرنسا، إنها أمة عظيمة من كافة الوجوه[٢]، غير أن الضعف من الداخل نهش روحها فى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، وحدث الانهيار فى عام ١٩٤٠م أمام جحافل القوات الهتلرية... إن الخطر الآتى من الداخل قائم، ويجب التأهب لصده باستمرار، وهنا أتوقف قليلاً لأقول: إن كاهن دلفى كان على حق.

يشير مونتجمرى إلى ما يروى من أن الأسبرطيين[٣] عندما كانوا فى أوج مجدهم العسكرى فى زمن الإغريق أرسلوا وفدًا إلى كاهن مدينة دلفى -مدينة

(١) يريد الشدة والاخشيشان والقوة... إلخ.

(٢) فى ظنه ورأيه.

(٣) فى اليونان.

يونانيـة- وسألوه فى غرور أحـمق: هل تعتـقد أن هناك مـا يمكن أن يلحق الأذى بأسبرطة؟ فأجاب بسرعة: نعم، الترف![١].

وقال المودودى الأسـتاذ[٢] موضـحًا أثر الحد من التناسـل -وهو مظهر من مظاهر التـرف- على فرنسـا: «كان أكثـر الأمم تأثرًا بحركـة منع التناسل هى فرنسا، فكانت نسبة المواليد فيـها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالى -عند نشـوب الحـرب العالميـة الأولى- ولم تكن إلا عـشـرون مقـاطعـة من مقاطعـات فرنسا السبع والثمانين تربـو نسبة المواليد على نسبة الوفـيات، وأما المقاطعـات السبع والستون البـاقية فكانت نسبـة الوفيات فيـها أكبر من نـسبة المواليد، وكـان معدل الوفيـات فى بعض مقاطعاتهـا يتراوح بين ١٣٠ و١٧٠ بإزاء كل مائة مولود.

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفـعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحيـاة، أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمـة البائسة تفتـقر إلى شباب مقاتلين ورجال محاربين، وأنه إن ضُحى -على الفرض- بذلك العدد القليل من شباب الأمـة وفتيانها فى سبـيل الدفاع عن الوطن فى تلك الآونة، فإنه لن تمكن النجاة من كـرة العدو الثانية، فكان من انبعـاث هذا الشعور فى نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم،

(١) مجلة الأزهر: ج ٨، السنة ٦١، سنة ١٤٠٩هـ، ص (٧- ٩).

(٢) المودودى: أبو الأعلى أحمد بن حسن الحسنى المودودى، رئيس الجماعـة الإسلامية بباكـستان، مجاهد، علامة، مفكر، ولد بالهند فى مدينة أورانج آباد سنة ١٣٢١هـ، عمل فى عدة أعمال، وأنشأ الجـماعة الإسلامـية سنة ١٩٤١م، واعتقل عـدة مرات، وحكم عليه بالإعـدام ثم خفف الحكم. له خمسـون مؤلفًا، بل يزيد، توفى بنيويورك سنة ١٣٩٩هـ، رحـمة الله تعالى: انظر: «إتمام الأعلام»: ص (٤٣، ٤٤).

وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء، وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة، كلهم يهيبون بالناس من كل جانب وبصوت واحد أن يكثروا من التوليد والتناسل، ولا يبالوا بالقيود التقليدية من النكاح والزواج، ونادوا أن العذراء التى تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن تستحق العز والكرامة لا العتب والملامة!! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزًا قويًا لدعاة الحرية والإباحية فانتهزوا الفرصة السانحة»(١).

ثم قال فى موضع آخر: «إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قواهم الجسدية، وتدرجها إلى الضعف يومًا فيومًا، فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم، وتعبد الشهوات يكاد يأتى على قوة صبرهم وجلدهم، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم، فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسى يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوبة فى المتطوعة للجيش الفرنسى -على فترة كل بضع سنين- لأن عدد الشباب الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر فى الأمة على مسير الأيام، وهذا مقياس أمين يدلنا -كدلالة مقياس الحرارة فى الصحة والتدقيق- على كيفية اضمحلال القوى الجسدية فى الأمة الفرنسية»(٢).

ثم قال -رحمه الله تعالى-: «والنكبة الثانية قد جرّها على التمدن الفرنسى طغيان الشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها هى خراب النظام العائلى، وتقوض بنيانه»(٣).

(١) «الإسلام ومشكلات الحضارة»: ص (١٥١، ١٥٢). للأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى، نقلاً عن كتاب الحجاب للأستاذ المودودى.
(٢) المصدر السابق: ص (١٥٢، ١٥٣).
(٣) المصدر السابق: ص (١٥٣).

ثم ذكر الأستاذ المودودى -رحمه الله تعالى- أمثلة متعددة من الشعوب الغربية، وقال الأستاذ سيد معقبًا: «إن الذين يخالفون عن قانون الفطرة لا يمكن أن يمضوا بلا عقاب، وهو عقاب رهيب، ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض، ورخاء العيش، ومضاعفة الدخل، والضمانات المادية الخيالية، فللحياة الإنسانية قوانينها الفطرية الصارمة التى لا تجامل، ولا تتخلف، ولا تلين... ولقد حذر الله سبحانه عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين، وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه المتمشى مع سننه فى الكون، فلا تكون لهم من عواقبها نجاة: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [يونس: ٢٤](١).

إذًا كان هذا الذى ذكر عن فرنسا مثالاً واحدًا، وسيأتى مثال آخر فى تضاعيف الكلام الآتى قريبًا -إن شاء الله تعالى- وإن كانت الأمثلة الغربية كثيرة فى الحقيقة، وقد ذكر الأستاذ الكبير الدكتور عيسى عبده(٢) أن هنالك

---

(١) «الإسلام ومشكلات الحضارة»: ص ١٦٤.

(٢) عيسى عبده: من الاقتصاديين الإسلاميين، تخرج فى جامعة مانشستر بإنجلترا، تبين له فساد النظام الربوى، فعاش حياته كلها لبيان آثاره الخطيرة، داعيًا لتأسيس بيوت مالية ومصارف تقوم على النهج الإسلامى، شارك فى إنشاء أقسام الاقتصاد الإسلامى فى عدد من الجامعات العربية، وألف عددًا من الكتب فى الموضوعات الاقتصادية المختلفة، توفى سنة ١٤٠٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «إتمام الأعلام»: ص ١٩٥.

عالمًا فيلسوفًا ألمانيًا اسمه شبلنجر ألف كتابًا أسماه «مغرب الغرب» أو كما يقولون: «أفول نجم الغرب»، ومات هذا الرجل سنة ١٩٢٦م، ولكن الذى استوقف نظرى أن كتابه طبع مرات كثيرة بعد موته ثم صدرت منه طبعة أخيرة سنة ١٩٦١م ظهرت فى إنجلترا فى صورة مختصرة، ومن أهم ما نادى به هذا العالم الألمانى قوله: «إن الحضارة المادية التى أترف فيها الناس، والتى كانت سببًا فى تقديم أوروبا وأمريكا على غيرهما من الشعوب هى سبب أفول نجم هذه الشعوب»، كتب هذا سنة ١٩١٩م وسنة ١٩٢١م، وأعيد الطبع سنة ١٩٦١م مع أن المؤلف مات سنة ١٩٢٦م؛ لأن الكُتَّاب والناقدين رأوا أن ما كتبه شبلنجر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى يكاد يصف أحداث اليوم؛ ولهذا أعيد الطبع من جديد، وتدور فكرة الكتاب حول مسألة واحدة: «لا علم بغير دين، ولا فضيلة بغير دين، ولا بقاء للسلطة بغير دين، والدين لا يجيز هذا الترف والفساد الذى نعيش فيه»(١).

وهذا الذى قاله الدكتور عيسى قبل أربعين سنة قد تعاظم اليوم، حتى استولى الترف على كثير من الناس فى الغرب والشرق على السواء، وبقيت بلاد الإسلام فى أكثرها فى مرحلة وسطى، فهى ليست مترفة ترف الغربيين، ولا هى بمحافظة على خلق الأولين من السلف الصالحين، بل تجنح إلى هؤلاء تارة وإلى أولئك أخرى، كما سأبين فى الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣١٨هـ، ص (٣٨٢، ٣٨٣).

٢- الدول العربية:

العرب هم مـادة الإسلام، وقوام قوة المسلمـين، إن ذل العرب ذلوا، وإن عز العـرب وقووا قوى المسلمون وازدهر شـأنهم، ليس ذاك عن قوميـة عفنة منتنة، مـعـاذ الله، بل لأن القرآن نـزل بلغتـهم، وهم الأقـدر على فـهمـه وتطبيـقه، ولئن فـعلوا وعاونهم سـائر المسلمين لا تقـوم قوة فى الأرض فى وجههم، ولكن ما هو حالهم اليوم؟ يقول الأستاذ الندوى -رحمه الله تعالى- مبينًا شأنهم:

«اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثيـر الحضارة الغربية حياة الترف والدَّعَة، والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير، والاستهانة بمال الله فى سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة[(١)].

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير جوعٌ وعرىٌ وفقرٌ فاضح، يرى الناظر مناظره الشـائنة فى عواصم البـلاد العربية، فـتدمع العـين ويحزن القلب، وينتكس الرأس حياء وخجلاً»[(٢)].

وقال الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله تعالى-:

«وهل نحن فى مجتمعنا الإسلامى عامة، والعربى خاصة، والمصرى بصفة أخص تجنبنا متارف الحـياة ولم نأخذ منها إلا بمقدار اسـترواح النفس؟ الجواب عن ذلك نأخذه من حاضر معاين، وشاهد قائم.

---

(١) قد قال الأستاذ الندوى هذا الكلام قبل ٥٣ سنة من الآن! فتأمل الوضع فى هذا الزمان!!

(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ص ٢٨٧.

وقد يقولون: إن الأمم التى نقلدها فى ذلك الترف المغرى قوية، ادَّرعت بالحديد والنار، نقول لهم: إنها ادَّرعت بالمال والحديد، ولكن لم تَدَّرع بالأخلاق الإنسانية العالية والعزائم القوية، ونرى ذلك واضحًا فى معاركهم، ألم تر أمريكا القوية بمالها وبسلاحها وكثرة عددها وسعة سلطانها وهى واقفة حائرة، فى معركة يذوب جيشها ذوبان الثلج فى مكان حار، أمام طائفة من الناس لا يتجاوز عددهم ستة عشر مليونًا؟!! ولكن الطائفة الصغيرة مدرعة بإرادة وعزيمة، وتعيش أدنى معيشة، أرسل طاغوت أمريكا إليهم خمسين ومائة ألف، ثم تزايد العدد حتى تجاوز خمسمائة ألف، وقائده يطلب المزيد، فليزد، ومهما تكن الزيادة فجيشه كحمر مستنفرة، فرت من قسورة»[١].

وقال أيضًا: -رحمه الله تعالى-: «ولننظر فى حالنا نجد أن البلاد الإسلامية أو العربية أو البلاد المصرية على وجه الخصوص تنقسم إلى قسمين[٢]: قسم يعيش على ملء بطنه إن وجد ما يملؤها، وعلى ستر عورته إن وجد ما يسترها، وهذا هو الكثرة الكاثرة.

وقسم يعيش فى ترف يُذهب كل معنى من معانى الرجولة، وهؤلاء إذا استمروا مسيطرين على الرأى العام الفكرى فبشِّر مصر والعرب بالخراب المستعجل! ونرجو ألا يكون.

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد الخامس، ١٣٨٨هـ، ص ٢٦٣، والأستاذ يتحدث عن حرب فيتنام.

(٢) هذا كان قبل أربعين سنة، لكن الصحوة أنشأت -بفضل الله تعالى- القسم الثالث المتوسط الذى كان نادرًا تلك الأيام، وأعنى بالصحوة: الصحوتين؛ الإسلامية، والاقتصادية، فى طفرة أواخر القرن الرابع عشر الهجرى، والانفتاح الذى حصل بسببها.

إننا نجد الآن دور الملاهى والصحف والمجلات إذا استثنينا المجلات الإسلامية المحدودة النشر، والتى لا يقرؤها إلا من يتمسك بدينه، ولا ينتفع بها غيره[١]، نجد تلك الدور كلها تصور حياة المترفين، وكذلك الروايات السينمائية نجدها تمثل قصورًا لقوم يتنعمون بأبلغ أنواع التنعم، ثم نجد معانيها كلها تتجه إلى اللذات وإلى الشهوات وإلى الإسراف فيها، ولا تجد فيها إلا مناظر السكارى والراقصين والراقصات، فإذا أردنا أن نعرف مجتمعنا من دور السينما ومن الأفلام نرى أنه مجتمع لاهٍ لاعب عابث، ثم إن تلك المناظر تقتل النخوة وتثير فى الشباب الرغبة الملحة فى أن يكونوا كأبطال السينما، يطلبون الهوى والترف واللذة، ولننتقل إلى الصحف فنرى كل صحيفة تنقل أخبار المترفين وأوصاف الملاذ والشهوات عن أمريكا وعن فرنسا وعن إنجلترا. وكذلك أنباء المطربين والمطربات وما هم عليه من ترف، فكأننا فى جو يدعو إلى الترف، مع وجود الحرمان المطلق!!

لذلك نخشى على أنفسنا، ونخشى على مصر والعرب أنه إذا استمرت تلك الدور تؤدى دورها فالويل ثم الثبور والهلاك للأمة العربية، وهو هلاك لا قبل لها باحتماله؛ لأن الترف كان فيما مضى محصورًا فى طبقات معينة، ولم يكن معلنًا فى كل مكان، وكان يستتر استتارًا؛ لأن الأمة العربية كانت فى شيكمتها وفى عزها وفى قوتها لا تخنع ولا تذل، إذا اختبرت أبلت بلاء حسنًا فى اختبارها، أما إذا ساد الأمر الآن فإننا نخشى على الأمة كل الخشية، وخصوصًا إن علمنا أن التليفزيون سيرسل إلى بلاد الفلاحين، وأنه يراد أن

(١) وهذا كان فى زمانه، لكن الأمور -بفضل الله- تغيرت إلى الأحسن بعد الصحوة.

يكون فى كل جمعـية تعاونية تليـفزيون؛ ليرفه عن الأهلين، وليـروا فيه ترف المفسدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

هذا الذى ساقه الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله تعالى- كان قبل أربعين سنة، فما أشبه اللـيلة بالبارحة؟! بل قد سبقت الليلة البارحة بمفـاوز بعيدة! فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وهناك عدد من الدول العربية والإسلامية سقط كثير من أفرادها فى مستنقع الترف، وولغوا فـيه، ونَهَلوا وعَبُّوا، حتى صارت السـمة الظاهرة لهذه الدول الترف والإخـلاد إلى الأرض، وعدم التطلع إلى المعـالى، والتعلق بسِفْـساف الأمور ودناياها.

وهناك عدد من الدول العربية والإسلامـية يُخشى على أبنائها من التأثر بمتع الحياة الدنيا والاستغـراق فى تناولها، وأن يؤدى بهم ذلك إلى الترف والتميع، والالتحاق بركب الدول التى رتعت فى الترف طويلاً وتأثرت به تأثرًا سيئًا.

ولنضرب مثالاً على القسم الأول؛ وهو من سقط فى مستنقع الترف:

فهذه احتفالات تجرى فى بلد عربى جُلب لها «فرق الرقص والطرب من أنحاء العالم العربىِّ، ووجـهت مئات الدعوات لحضور هذه الليالـى الراقصة، حتى إن جميع الفنادق فاضت بنزلائها، ولم يعد مكان لـضيوف وزارة الإعلام الرسميين، ثم وزعت الجوائز والهدايا الثمينة على هذه الجموع إظهارًا للكرم الفياض!»[2].

وهذه الحفلة قد مـر عليها الآن أزيد من ثلاثين سنة؛ فمـا ظنكم بحفلات اليوم؟!

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد ٦، ١٣٨٢هـ، ص ٣٨٨.

(٢) مجلة المجتمع: العدد ١٣٠، ١٣٩٢هـ، ص ١١.

دراسات اجتماعية اقتصادية
عن حال بعض الشباب فى هذه الدول

وهناك دراسة اجتماعية اقتصادية عن واقع الشباب فى إحدى دول الخليج العربى؛ وهى دراسة اعتمدت على مقابلات مباشرة لمجموعة من الشباب والشابات، وتظهر هذه الدراسة بوضوح مدى ضعف الوعى عند أولئك بأهمية المال، وأنه نعمة من الله تعالى، وأنه يجب إنفاقه بلا إسراف ولا تبذير، وأنه على المرء أن ينفقه فيما يحتاجه أو تكمل به راحته، لا فيما لا طائل من ورائه سوى الفخر والخيلاء والتبذير، ونصت الدراسة على أن «الرفاهية المادية جعلت المرأة أكثر اهتمامًا بأنماط سلوكية مظهرية، تتمثل فى الحرص على اقتناء الحلى والمجوهرات الثمنية، والثياب، والكماليات، والعطور باهظة التكاليف، ولقد أكد على مثل هذه الآراء بعض الشباب، وعلى وجه العموم تشير هذه الحالات إلى أن المشكلة لا تكمن فى التمتع بأساليب الحياة المادية، ولكن فى تعدى حدود الإمكانات المادية بشكل يرهق ميزانية الأسرة.

ولقد أشارت إحدى الحالات إلى حقيقة مهمة؛ وهى ارتباط النمط الاستهلاكى بالإمكانات المادية والمكانة الاجتماعية، بمعنى الرغبة فى إظهار القدرة على الاستهلاك، والإسراف فى الاستهلاك ليس لمجرد إشباع الاحتياجات المادية الفعلية، بل أيضًا لإرسال رسائل رمزية للآخرين، تتضمن نوع المكانة الاجتماعية التى تتمتع بها، وعلى سبيل المثال:

عندما أثير موضوع أن المجتمعات الغربية تستهلك لكنها تنتج ما تستهلكه، كانت الإجابة السريعة فى الحالة السابقة هى أن الفرد فى مجتمع (س)

يستهلك من الأجهزة الكهربائية والمجوهرات ما يزيد عن ثلاثة أضعاف ما يستهلكه الفرد فى تلك المجتمعات الصناعية، وكانت الإجابة تركز على التفوق فى القوة الشرائية أو الثراء كعامل تعزيز للمكانة الاجتماعية وتعظيم الذات، ويظهر مثل ذلك النمط السلوكى الذى يؤكد على هيمنة رموز التميز لدى الشباب فى تغيير موديلات أحدث السيارات وأكثرها تكلفة فى العام الواحد أكثر من مرة، ويظهر أيضًا فى اقتناء أكثر من هاتف متحرك للشخص الواحد. إن مثل هذه المبالغة فى الإسراف أو الشره الاستهلاكى غير الرشيد، ترتبط بأنماط جديدة ودخيلة على الثقافة المحلية، كما أن مثل هذه الأنماط السلوكية تحمل رسائل اجتماعية ورموزًا شخصية تهدف إلى تضخيم الذات، ومن الإفرازات السلبية للرفاهية المادية ظهور نمط السلوك المدلل على حد تعبير إحدى الحالات، وهذا السلوك النمطى المدلل ناجم عن إحساس بعض الشباب بأنهم مركز اهتمام الجميع، أو أن الجميع يعملون من أجلهم، وبالتالى لديهم قيم الاعتماد على الغير فى كل مجالات الحياة، كما تتأكد لديهم نزعة الأخذ لا العطاء، وعدم شعور هؤلاء الشباب بالمسئولية يدفعهم إلى أعمال الطيش والتهور؛ مثل قيادة السيارة بسرعة كبيرة، فى حين أنه لا يوجد سبب لذلك إلا التباهى، كما أن هذه السرعة لا تتفق مع الخمول والكسل والبطء الذى يتسم به سلوك هؤلاء الشباب.

وفى النهاية تؤكد الدراسة أن الرفاهية المادية يمكن أن تكون ذات تأثير أكبر إيجابية على أنماط سلوك الشباب؛ إذا ما تضافرت الجهود لتعزيز العلم، والتسلح بالقيم والمبادئ الدينية، وتوفير السبل لتكوين الأسرة المتماسكة وتعزيزها»[١].

(١) «واقع الشباب»: ص (٢٩-٣٥).

وفى دراسة ميدانية أخرى ذُكر أن جانبًا كبيرًا من النسوة فى أحد المجتمعات الخليجية قد تحول إلى «جماعة مستهلكة»، بهرتهن المنتجات الغربية إلى الدرجة التى أصبح فيها الاستهلاك عندهن قيمة فى حد ذاتها، مسهمات بذلك فى تدعيم التبعية الاقتصادية والثقافية لمجتمعهن، والأمر ينطوى على خطورة كبيرة، خاصة إذا ما علمنا أن هؤلاء النسوة بقيمهن المادية التى اكتسبنها مسئولات عن إعداد الأجيال القادمة»[١].

وأما مثال القسم الآخر -وهو الدول التى يخشى- فرجل بنى قصرًا فخمًا من أجل ممثلة ساقطة أجنبية، وقال لها: ستعيشين فيه كملكة، وكان يملك حول القصر حقولاً، بل قرى بأسرها[٢].

وهناك مثال آخر لهذا القسم من الدول والشعوب ذكره الأستاذ على الطنطاوى[٣] -رحمه الله تعالى- بأسلوبه المميز المعروف، فقال تحت عنوان: «بطون جائعة وأموال ضائعة»:

«وُلد لى فى هذا الأسبوع مولود جديد، فأُهدى إلى أمه أكثر من عشرين علبة شيكولاتة، من هذه العلب التى جدَّت فى دمشق، وصارت (مودة) الوقت، كل علبة منها لعبة كبيرة بأشكال وألوان، ما عرفناها قبل الآن، منها ما هو على صورة طيارة بأجنحتها وذنبها ومحركاتها ودواليبها، ومنها ما هو على شكل عربة بخيولها ولُجُمها وسائقها، كل ذلك مصور بشكل دقيق الصنعة، ومنها ما هو على هيئة سرير له فراش ووسادة من الحرير، وفى كل

(١) «المرأة»: ص ١١٠.

(٢) مجلة الرسالة: العدد ١٦٦، ١٣٥٥هـ، ص ١٤٤٠.

(٣) على الطنطاوى: توفى -رحمه الله تعالى- سنة ١٤٢٠هـ، وهو من أدباء العربية المشهورين الذين انفردوا بساحة الأدب لتأخر وفاته، وكتبه ورسائله ومقالاته كثيرة شهيرة.

منها قبضة من السكر والشيكولاتة، وهى ملفوفة بالورق الصقيل الشفاف، معقود عليها شريط من خالص القز[١]، لا يقل ثمن إحداها عن عشرين ليرة سورية[٢]، فلما ذهبنا نفتحها تقطع الشريط وتمزق الورق، ثم تسلمهما منا أولاد الدار، وأبناء الضيوف؛ لأنها لعب خلقت لهم لا للكبار، فلم تكن إلا أيام حتى تكسرت فى أيديهم، وكيف لا تتكسر وهى مصنوعة من قطع الخشب الملون الملصق بعضه ببعض، لا يحتمل صدمة ولا نقرة؟! وعادت حطبًا انتهى به الطريق إلى المدفأة، فاحترقت أربعمائة ليرة كان يمكن أن يشترى بها من خبز البلدية عشرون ألف رغيف[٣]، ومن الثياب النسائية المستعملة التى توزعها وزارة التموين أربعمائة ثوب، ويمكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال، هذا وأنا رجل معتزل الناس، لا أديم مواصلتهم، ولا أؤدى حقوقهم، خارج على مواضعاتهم[٤]، ثائر على عاداتهم، لا أصنع إلا ما أجده نافعًا معقولاً، ولى من جرأة جنانى ومضاء لسانى عاصم من لومهم وتعنيفهم، وهذا هو المولود الثالث لا الأول، فكيف تكون الحال لو كنت من الأثرياء الذين يخالطون الناس، ويقومون بحقوقهم؟! وكيف لو كان المولود صبيًا بكرًا؟!

ففكروا كم ننفق من الأموال فى أشياء لا يأتى منها خير، وما فى تركها ضرر، ونحن نشكو الفقر والمرض والجهل؟

(١) أى الحرير الطبيعى.

(٢) وهى بمقاييس شراء هذا الزمان لا تقل عن ٤٠٠ ريال سعودى.

(٣) قال الأستاذ على ذلك؛ لأن البلدية فى دمشق تبيع الخبز للفقراء، كل كيلو بعشرة قروش، فالطن منه بمائة ليرة فقط!

(٤) ما اتفقوا عليه من طرق المعيشة.

أعرف رجلاً تزوج فأُهدى إليه يوم زفافه من أصدقائه وصديقاته وأقربائه وقريباته مائة وست عشرة باقة زهر، ثمن أدناها خمس ليرات، وقد يبلغ ثمن أعلاها العشرين، فحار أولاً أين يضعها، ومن أين يأتى لها بالكؤوس والأوانى، ثم بدا له فجعلها حول سرير العروسين، فكان لها منظر رائع خلاب، ثم مرت الأيام ففسدت وجفت، فاستأجر رجلاً يحملها ليلقيها فى إحدى المزابل!

ألف ليرة تلقى على مزبلة، ونصف الأمة يتضور جوعًا!!

وأعرف آخر من التجار، أبى له سفهه وتبذيره وكفره بنعم الله إلا أن يوزع السكر على نحو خمسمائة مدعو لحضور عقد ولده فى علب من الفضة، فى كل منها صحن من البلور، لا أدرى من أين جاء بها؛ فما فى بلدنا منها، قالوا: إن ثمن الواحدة منها خمس عشرة ليرة، فهذه سبعة آلاف وخمسمائة ليرة، دون باقى المصروفات فى الفرش والزينة والثياب، وإن من نساء هؤلاء التجار الفجار الأشرار من تشترى المعطف الواحد بألف ليرة، وإذا لم تصدقوا فاسألوا تجار الفرو.

والتبذير فى أتراح هؤلاء الأغنياء لا يقل عنه فى أفراحهم، فلا تخرج جنازة أحد حتى يمشى معها رجال المولوية[1] بقلانسهم[2] التى تشبه علب اللبن، وثيابهم التى تحكى إذا داروا المخاريط الناقصة التى وصفوها لنا فى درس الهندسة أيام المدرسة، ولا يمشون حتى يقبض شيخهم الرسم المقرر؛ خمسمائة ليرة، وأمام الجنازة الآس والحناء، وبعدها حفلة التنزيلة، ثم

(١) هم طائفة من الصوفية ذات الأصل التركى فى منشئها.

(٢) ما يضعونه على رؤوسهم.

الصباحية والعصرية، وللنساء فيها كسوة خاصة، تُشترى من أجلها، فلا يصل الميت إلى القبر حتى ينفق عليه -إن كان من الموسرين- خمسة آلاف ليرة، ما أنفق قرش واحد منها فى طاعة الله!

وإن حول كل دار من هذه الدور، التى تهدر فيها الأموال، لمساكن فيها ناس مثلنا من بنى آدم من إخواننا فى الدين، وفى الوطن، وفى اللسان، يشتهون عشر معشارها، أو أقل منه؛ ليشتروا به طعامًا يملأ بطون أولادهم، وثيابًا تستر أجسادهم، وإن لهؤلاء الناس -لو عرف الأغنياء- عيونًا تنظر كعيوننا، وقلوبًا تتألم كقلوبنا، ولهم بنون وبنات هم قطع أكبادهم، وهم -على هلهلة ثيابهم ووساخة أبدانهم- أحبة إليهم، أعزة عليهم كعزة أولادنا علينا، وربما كانوا أزكى من أولادنا نفوسًا وأطهر، وأذكى عقولاً وأمهر، وكانوا أرضى لله وأنفع للوطن منا، ولكن الفقر عطل قرائحهم، وكف أيديهم، وكبل أرجلهم.

إن هؤلاء وإن لم يكن فى أعراسهم باقات الزهور، ولم يكن فى جنائزهم مولوية ولا آس، ولم يعرفوا طريق المدارس والملاهى، ولم يزهوا بغالى الثياب، ولم يتمددوا على أرائك السيارات، ولم يعرفوا المشيخة التى يأكلون بها الدنيا بالدين! ولا الزعامة التى يجمعون بها المال بالوطنية! إنهم هم عماد هذا الوطن، وهم جمهرة أهله، وهم يزرعون القمح ويقدمونه إلينا، ثم يعيشون على الذرة والشعير!! وهم يبنون لنا القصور، ثم يقيمون فى الأكواخ مع البقر والحمير!! وهم يصنعون بأيديهم الشيكولاتة التى لا يذوقونها! ويحيكون الثياب التى لا يلبسونها! وهم يسهرون فى الطرقات ليحرسونا ونحن

نيام! وهم يمشون إلى الميادين ليدافعوا عن أوطاننا ونحن آمنون! وهم قد دفعوا ثمن الاستقلال مهجهم وأرواحهم، ثم لم يأخذوا من خيراته شيئًا!!

إن هؤلاء هم ركن الوطن وعماده، وهم أهله وقُطَّانه[١]، فحرام علينا أن ننساهم ونهملهم، حرام أن تبقى هذه الأموال ضائعة، وهذه البطون جائعة، حرام فى دين الله، وفى شرعة الإنسانية، وفى قانون الشرف؛ فأين المصلحون؟! فأين المصلحون؟! أين رجال الجمعيات؟! أين أرباب الأقلام؟!

لقد كنت أصفح أعدادًا عتيقة من مجلة «الهلال»، فوجدت فى أعداد منها أن فى بلاد السويد جمعية اسمها «جمعية أمناء الأزهار»، عملها جمع الأموال التى يشترى بها أهل الميت وأصدقاؤه باقات الزهور التى تحمل مع الجنازة، ثم توضع على القبر، وإنفاقها فى بناء مساكن صحية للعمال الفقراء، يسكنون فيها بأجر يسير، وإنها أنشأت -إلى- تاريخ ذلك الخبر- نحوًا من ألف مسكن!

فلماذا لا يكون فينا رجال مثل رجال هذه الجمعية؛ يأخذون المال من هنا، فيضعونه هناك، فيصلحون به أخلاق الأمة بإنقاذها من داء التبذير والأثرة والمفاخرة بالباطل، ويدفعون عن أغنيائها حسد فقرائها وبغضاءهم، ويعودون عليها بالخير لها فى أجسادها وعقولها وصناعاتها وحضارتها؛ إذ ينفقون هذا المال فيما هو أولى به من وجوه الإصلاح؟!

لماذا نأخذ من الأوربيين السم وندع الترياق[٢]؟!

كم ينفق فى الشام ومصر والعراق وسائر بلدان هذا الشرق الإسلامى فى الزفاف وحفلاته، والمأتم وملحقاته، والأعياد والمواسم، وأيام الولادة والختان فيما لا ينفع أحدًا البتة، ولا يعود عليه بعائدة، ولا تناله منه فائدة؟!

(١) سكانه. (٢) الدواء.

حتَّامِ(١) تهدر الأموال ويراق الذهب؛ اتباعًا لعادات قبيحة، وتقليدًا كتقليد القردة، وجمهور هذا الشعب يشكو الفقر والمرض والجهل؟!

هل تذهب بشاشة العيد ويمَّحى رواؤه لو اصطلح الناس فيه على تقديم السكر الملبَّس الوطنى بدلاً من الشيكولاته، وصرفوا فرق الأثمان فى بناء مدرسة أو مستشفى فى كل بلد؟!

هل يبطل أنس العرس، وتضيع بهجته إذ لم يكن إلا باقتان من الزهر؟!

هل يكتب على العروسين الشقاء الدائم إذا وزعت الحلوى على المدعوين فى قراطيس بدلاً من العلب؟!

هل يحرم الميت التقى من نعيم الجنة، ويضاعف على الشقى العذاب إذا لم يمش فى جنازته رجال الطريقة المولوية، التى لا يقول بها عقل ولا نقل، ولا يقرها شرع ولا طبع؟!

فإلى متى نضيع أموالاً نحن اليوم أحوج إليها من كل يوم مضى؛ لأننا فى عهد تجديد وبنيان، ولأننا فى أول طريق الاستقلال؟!

فيا أيها الأغنياء: لا تغتروا، فإن النعم لا تدوم، وإن بعد اليوم غدًا، وإن بعد الحياة موتًا، وإن بعد الموت لحسابًا عسيرًا أمام رب الأرباب، الذى خلقكم وخلق الفقراء من طينة واحدة، ولم يخلقهم من التراب ويخلقكم من الإسمنت المسلح!! ولم يميزكم عنهم إلا بمال أعاركموه؛ ليكون محنة لكم، وليطول عليه حسابكم.

(١) إلى متى؟

ويا أيها المصلحون: هذا باب من أوسع أبواب الإصلاح فَلِجُوه[١]، بارك الله فيكم -إن فعلتم- وأيدكم.

ويارب: منك أنت التوفيق، فأعط المخلصين مقدرة، وأعط القادرين إخلاصًا فإننا نشكو إليك شكاة عمر: ضعف التقى، وفجور القوى!![٢].

❀❀❀

---

(١) ادخلوه.

(٢) مجلة الرسالة: العدد ٦٦٨، ١٣٦٥هـ، ص (٤٣١، ٤٣٢).

بيان حال أهل المدن وانغماسهم في الترف وأثر ذلك عليهم

يقول ابن خلدون[١] -رحمه الله تعالى- مبينًا أثر الترف فى أهل المدن خاصة، والفرق بينهم وبين أهل البادية وأهل القرى البعيدة عن العمران الراقى، الآخذ بأسباب الحضارة، فيقول:

«الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، والحضارة -كما علمت- هى التفنن فى الترف، واستجادة أحواله، والكَلَف[٢] بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية، ولسائر أحوال المنزل، وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يُحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها.

وإذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد[٣] بألوان كثيرة، لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا

(١) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، أبو زيد، ولى الدين الحضرمى الإشبيلى، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعى البحاثة، أصله من إشبيلية، وولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ بها، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، واعترضته وشايات ودسائس ثم عاد إلى تونس، ارتحل إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولى فيها قضاء المالكية، ثم عزل وأعيد، توفى فجأة بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ، رحمه الله تعالى، وكان فصيحًا، عاقلاً، صادق اللهجة، طامحًا للمراتب العالية، له عدة كتب. انظر: «الأعلام»: ٣/ ٣٣٠.

(٢) التعلق. (٣) العادات.

دنياها، أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التى يعسر نزعها، وأما دنياها؛ فلكثرة الحاجات والمؤونات التى تطالب بها العوائد ويعجز وينكب[١] عن الوفاء بها».

ثم يقول مبينًا أثر تلك العادات -ويسميها عوائد- على الناس:

«تعظم نفقات أهل الحضارة، وتخرج عن القصد[٢] إلى الإسراف، ولا يجدون وليجة[٣] عن ذلك؛ لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات، وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف، وهذه مفسدات فى المدينة على العموم فى الأسواق والعمران.

وأما فساد أهلها فى ذاتهم واحدًا واحدًا على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد، والتلون بألوان الشر فى تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها؛ فلذلك يكثر فيهم الفسق، والشر، والسفسفة، والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، وتنصرف النفس إلى الفكر فى ذلك والغوص عليه، واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء[٤] على الكذب، والمقامرة، والغش، والخلابة[٥]، والسرقة، والفجور فى الأيمان، والربا فى البِيَاعات، ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه، والمجاهرة به وبدواعيه، واطراح الحشمة فى الخوض فيه،

---

(١) وينصرف.

(٢) الاعتدال.

(٣) لا يجدون مخرجًا ولا دافعًا.

(٤) جمع جرىء.

(٥) الخداع.

حتى بين الأقارب وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم. . . وتجدهم أيضًا أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بـذلك ما عساه أن ينالهم من القهر، وما يتوقعـون من العقاب على تلك القبـائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقًـا يصير لأكثرهم، إلا من عـصمه الله، ويموج بحر المدينة بـالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة، وإذا كثر ذلك فى المدينة أو الأمـة تأذن الله بخرابها وانقراضها؛ وهو معنى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

ومن مفـاسد الحضـارة الانهماك فى الشـهوات والاسترسـال فيهـا؛ لكثرة الترف، فـيقع التفنن فى شـهوات البطن من المآكل والملاذ، فيـفضى ذلك إلى فساد النوع، فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هى الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ فى الهرم.

إن الأخلاق الحاصلة من الحـضارة والترف هى عين الفـساد؛ لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه، ودفع مضـاره، واستقامة خلقه للسعى فى ذلك، والحضـرى لا يقدر على مـباشرة حـاجاته، إمـا عجزًا لما حـصل له من الدعة، أو ترفـعًا لما حـصل له من الَـمْربى فى النعـيم والترف، وكـلا الأمرين ذميم. . . ثم هو فاسد أيضًا -غالبًا- بما فسدت منه العوائد وطاعتها، وما تلونت به النفوس من مكانتـها كما قررناه، إلا فى الأقل النادر، وإذا فـسد الإنسان فى قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته، وصار مسخًا على الحقيقة»[١].

---

(١) «مقدمة ابن خلدون»: ص (٣٧٢- ٣٧٤).

وكلام ابن خلدون، وإن كان فيه شيء من التعميم والخلط، لكنه صادق فى الجملة على أكثر الطوائف، وهو مصور على وجه بديع صورة الحياة فى أوائل القرن التاسع، وهذا يعرفنا لماذا سهل على الاستخراب العالمى - الاستعمار- بعد ذلك أن يجتاح العالم الإسلامى ويمزق شمله؛ لأن حال أكثر أهله، ومن يفترض فيهم أنهم هم أهل القوة والدفاع عن المدائن هو كما صوره ابن خلدون، فاللهم رُحْمًا.

واليوم فقد مس أهل البداوة شيء كثير من التحضر، والأخذ بأسباب الرفاهية، حتى خيف عليهم اللحاق بأهل المدن والحواضر فى ترفهم وضعفهم وتقاعسهم وكسلهم، وهذا الأمر منذر بعواقب وخيمة إن لم يستدرك ويعالج، والله أعلم.

تلك كانت أمثلة للترف الذى استشرى فى أمم وشعوب قديمًا وحديثًا، فأفقدها عزها، ودمر قواها، وأورثها الوهن والهوان، ونحن فى المجتمعات الإسلامية اليوم بحاجة إلى تدبر هذا وفهمه، والبعد عمَّا سببه وجرَّ إليه، والمجتمعات الإسلامية مخاطبة بهذا خطابًا عامًا، والمجتمعات الخليجية مخاطبة خطابًا خاصًا، فالناس فى هذه المجتمعات الخليجية -سواء أكانوا مواطنين، أم مقيمين- قد غلب عليهم التوسع فى المباحات، والركون إلى اللذائذ والشهوات، وصاروا قادرين أكثر من غيرهم من سائر المسلمين بكثير على تحصيل ما تميل إليه نفوسهم وتتطلع إليه رغباتهم، فهم بهذا قد تعرضوا للترف تعرضًا يُخاف عليهم معه آثاره، ويخشى عليهم منه آفاته، والأمر مشاهد معلوم لا يحتاج إلى كثير تدليل، ولا إلى حشد براهين.

والدعاة والصالحون جزء من هذا النسيج الخليجى المترف، فالخوف كل الخوف أن يقعوا فى دائرة الترف -وقد حصل هذا لعدد منهم ليس بالهين- فيبتعدوا عن المعانى العلية والأمور العلوية، ويتمرغوا فى ساحات السفاسف، ويرتعوا فى عرصات الدنايا، وهم مطالبون بالحذر أكثر من غيرهم، والاحتياط زيادة على احتياط من عداهم، وإلا فلات ساعة مندم[١]، وتفصيل هذا الترف الواقع عليهم سيأتى فى ثنايا الرسالة إن شاء الله تعالى.



(١) أى: وقتها لن تنفع الندامة

المبحث الرابع:

آثار الترف فى العاملين

للترف آثار مهلكة ضارة، تنهش أجساد وعقول وقلوب العاملين من الدعاة وطلبة العلم والعلماء وسائر الصالحين، وتقلل جهودهم، وتضعف حركتهم، وتحبب الدنيا إليهم، وترغبهم فيها، وتطيل أملهم، والخطر كل الخطر أن يهاجم الترف أولئك، وهم صفوة الأمة وخلاصتها، ووجهها المضيء، ومتعلق آمالها، وقبلة توجهاتها، ومحل سرها، ومكمن قوتها، فإذا فعل الترف فعله بأولئك فكبر على سائر الأمة أربعًا، ولا ترجو منها شيئًا؛ لذلك كله وجب العمل على محاربة الترف بأسلحة الجد والاجتهاد، والزهد والاخشيشان، والتقوى والإيمان، قبل أن نندم، ولات ساعة مندم.

ومما ينبغى معرفته أن الترف لا يهجم دفعة واحدة، ولا يجرد أسلحته كلها تجريدًا مجتمعًا، بل هو أشبه بالأمراض التى تغزو الأجساد غزوًا بطيئًا، ثم تمكث فيها زمانًا مكيثًا طويلاً قبل أن تبدو أعراضها وتعمل جراثيمها، والترف يتدرج بالأمة شيئًا فشيئًا، وجانبًا تلو جانب، وركنًا إثر ركن؛ حتى يأتى على بنيانها من القواعد، ويُخِرَّ عليها سقف الأمانى والأحلام لتجد نفسها وقد ابتعدت شوطًا طويلاً عن المعالى، ولم تقدم شيئًا يذكر إلا التوانى، والبكاء على الأطلال والمغانى، والتعلق بما كان عليه الأجداد، وغض الطرف عما عليه الأنداد، من الجد والاجتهاد، والسبق والإعداد.

وآثار الترف كثيرة متنوعة، لكني سآتي على أبرزها -فيما أظن وأرى- وأهمها وأعظمها تأثيرًا في سائر الورى، فمن ذلك -أبعدنا الله وإياكم عما هنالك، وحمانا من سائر المهالك-:

الأثر الأول: الغفلة عن درجات الآخرة العالية:

وهذا مرض عظيم، وذلك أن المرء المترف لا يعود يرى إلا لذائذه وشهواته، وينقلب في الترف ظهرًا لبطن، والدرجات العاليات لا تنال إلا باجتهادات ورياضات للنفس طويلة، نحو صيام وقيام، ودعوة وحركة، وسد للثغرات الكثيرة في جسد الأمة المنهك، وما ينبني من جراء ذلك من عمل طويل وإتعاب للجسد وإشغال للعقل والقلب، وكل هذه الأعمال لا يمكن أن يأتيها المترف فتفوته المنازل العالية، ولات ساعة مندم.

قال ابن القيم[١] -رحمه الله تعالى-: «قال لي يومًا شيخ الإسلام[٢] -قدس الله روحه- في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم

---

(١) ابن القيم: هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُرعي الدمشقي، الشيخ الإمام، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي، ولد سنة ٦٩١هـ، كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، وكان كثير التلاوة والصلاة، حسن الخلق كثير التودد توفي -رحمه الله تعالى- سنة ٧٥١هـ بدمشق، وكانت جنازته حافلة. انظر: «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١- ٢٣.

(٢) يعني أستاذه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، شيخ الإسلام، وأحد أئمة المسلمين المجتهدين، وينسب إلى تيمية جدته، له المصنفات النافعة المشهورة، والمواقف الجهادية المشهورة في مقابلة التتار سنة ٧٠٢هـ بدمشق، توفي مسجونًا سنة ٧٢٨هـ، رحمه الله تعالى. «انظر الدرر الكامنة»: (١/ ١٥٤- ١٧٠).

يكن تركه شرطًا فى النجـاة، فالعارف يترك كثيرًا من المـباح برزخًا بين الحلال والحرام»[١].

وهذا الذى لام عليه شيخ الإسلام تلميـذه «شىء من المباح»؛ فما بالكم بما نراه اليوم من تمتع الدعاة بمباحات ونعـيم لا يعرفه الملوك السالفون، وترف لم يترفه الأغنياء الماضون؟!

الأثر الثاني: التعلق بمباهج الحياة ونسيان الهدف منها:

وذلك أن المرء إن تقلب فى المبـاهج وذاقهـا تعلق بها أيمـا تعلق، وملكت عليه حـياته، وصار لا يستطيع التـخلص منها، بل لا يريد، وأصبحـت همته متعلقـة بالازدياد من تلك المباهج، والاجتماع على تلك المسـرات، حتى يعد فى عِداد المترفـين وينظم فى سلوكهم، ويقفو أثرهم؛ لـذلك حذرنا الله تعالى من هذه الحياة الدنيا أشـد تحذير، فقال الله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال جل من قائل: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [يونس: ٢٤].

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/٢٦.

وقال ﷺ محذرً أصحابه -رضى الله عنهم- والأمة كلها بعدهم: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

وللتعلق بمباهج الحياة صور، أذكر منها التالى:

أولاً: التوسع فى المآكل والمشارب:

إن من أسباب الترف التوسع فى المآكل والمشارب، والتفنن فى إعداد الطعام وتزيينه، والإكثار فى الحديث عنه والتفاخر به، والبحث عن أطايبه، والتنادى إلى كل ذلك، والاجتماع عليه، والتواصى به، والله تعالى لم يحرم علينا ما ذكرت، لكن كرهه لنا، وأراد منا الارتفاع عن كل ذلك، والتعلق بما هنالك، من النعيم المقيم، والتمتع الدائم؛ لذلك قال جل من قائل: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١].

ولعمر الحق، إن ما ذكرته آنفًا يعد نوعًا من الإسراف، ودافعًا للنفس إلى الاستسشراق، ومضيعًا لها فى أودية المتع، وصاداً لها عن سبيل المجد.

وقد كان الحبيب الأعظم ﷺ بخلاف كل ذلك التعلق بأنواع المطاعم والمشارب، بل كان ينقطع عن التلذذ بالطعام أيامًا، فيكتفى منه بأقل القليل ﷺ، وقد قالت أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها-: «إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهِلَّة فى شهرين، وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار، فيقول لها عروة -ابن أختها-: ما كان يعيشكم؟

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس منها؛ ومسلم فى صحيحه: كتاب الزهد والرقائق، واللفظ له.

قالت: الأسودان: التمر، والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقيناه»[١].

وقالت عائشة -رضى الله عنها-: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بُر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض»[٢].

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم الشعير»[٣].

وهذا عمر الفاروق يدخل على ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، فرأى عنده لحمًا، فقال: ما هذا اللحم؟! قال: اشتهيته، قال: «وكلما اشتهيت شيئًا أكلته؟! كفى بالمرء سرفًا أن يأكل كل ما اشتهاه»[٤].

وقد سار عمر على هذا الطريق فى تربية نفسه، فقد قال أحد التابعين: «كنت أتغدى عند عمر -رضى الله عنه- الخبز والزيت والخل، والخبز واللبن والقديد، وأقل ذلك اللحم الغريض»[٥].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه، و«منائح»: جمع منيحة؛ وهى الشاة التى تُعار لشرب لبنها، ثم تُردُّ إلى صاحبها إذا انقطع عنها اللبن.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، وقال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا: أخرجه الترمذى وابن ماجة، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، ومعنى طاويًا؛ أى: خالى البطن جائعًا، وانظر: «الفتح الربانى»: ٢٢/ ٧٦.

(٤) «آفات على الطريق»: ١/ ٥، وقد نقله المصنف عن «حياة الصحابة» للكاندهلوى ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥، وقال كذا فى منتخب الكنز (٤/ ١ ٠ ٤).

(٥) الغريض: اللحم اللين، والقديد: اللحم المجفف.

وقال رضى الله عنه: «لأنا أعلمكم بخفض العيش[١]، ولو شئت لكنت أطيبكم عيشًا، وإنى والله ما أجهل عن أسنمة وصلاء، وصناب وصلائق، ولكنى أستبقى طيباتى، فإن الله تعالى وصف أقوامًا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][٢].

وليس التمتع بما ذكر الفاروق حرامًا، لكنه كان يريد أن يدرك منزلة صاحبيه، رضى الله عنه وعن أبى بكر، وصلى الله على رسوله وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكان يربى أصحابه على هذا المنهج؛ إبعادًا لهم عن الترف واخشيشانًا.

والقاعدة فى باب الطعام والشراب المبعدة للآخذ بها عن الترف -إن شاء الله تعالى- هى ما قاله الإمام أبو بكر بن العربى[٣] -رحمه الله تعالى-: «والذى يضبط لك هذا الباب، ويحفظ قانونه على الميزان: يأكل ما وجد، طيبًا كان أو قفارًا[٤]، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة، فقد كان النبى ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب

(١) العيش الهنى.

(٢) «قمع الحرص بالزهد والقناعة»: ص ١٧٨، والآية من الأحقاف: ٢٠، والأسنمة: جمع سنام، وهو الموضع المعلوم من الإبل، والصلاء: المشوى، والصناب: الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب، والصلائق: الخبز الرقاق العريض.

(٣) أبو بكر بن العربى: الإمام العلامة، الحافظ، القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد، ابن العربى الأندلسى الإشبيلى المالكى، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٦٨هـ، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، توفى سنة ٥٤٣هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٢٠/ ١٩٧- ٢٠٤).

(٤) شديدًا غير مشتهى.

العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يتعهده أصلاً، ولا يجعله ديدنًا، ومعيشة النبى ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة»(١).

وكان هذا الذى ذكره ابن العربى -رحمه الله تعالى- علامة على المسلمين، يُعرفون بها، ولا يخرجون عنها فى جموعهم؛ حتى حصل لهم ما حصل من التغير والفساد، والله المستعان.

شبع المترفين:

وهذا التوسع يجرُّ إلى آفة عظيمة؛ وهى الشبع وتناول الزائد عن الحاجة، وقد قال ﷺ: «**ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه**»(٢)، وتحقيق هذا الأمر ليس بالسهل، ودونه ترويض للنفس طويل، لكن لابد منه إن أراد المرء الابتعاد عن آفات الشبع واتباع السنة فى طعامه.

وقال عمر -رضى الله عنه-: «إياكم والبطنة فى الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»(٣).

---

(١) قمع الحرص بالزهد والقناعة (٢٠٥).

(٢) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: كتاب الزهد، باب ما جاء فى هديه فى الأكل، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وانظر: مقالة د. عبد الجواد الصاوى فى مجلة «الإعجاز»، الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمى فى الكتاب والسنة، التابعة لرابطة العالم الإسلامى، عدد ١٢ صفر سنة ١٤٢٣هـ، ففيها كلام جميل فى شرح هذا الحديث، وربطه بالعلوم الحديثة.

(٣) «كنز العمال»: ١٥/ ٤٣٣، ونسب الأثر إلى أبى نعيم.

وقال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: «ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا مرة، فأدخلت يدى فتقيأتها؛ لأن الشبع يثقل البدن، ويقسى القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف عن العبادة»[١].

وقال أبو سليمان الداراني[٢]: «لكل شيء صدأ وصدأ القلب الشبع»[٣].

وهذا أحد العباد يقول: «كم من أكلة منعت قيام ليلة»[٤]؛ وذلك بسبب ثقل الجسم والخمول الناشئ عن الامتلاء.

وهذا شيخ من شيوخ السلف يقف على طلابه فيقول: «لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتتحسروا عند الموت كثيرًا»[٥].

وسبب التحسر هنا هو قلة الحسنات بسبب الغرق في المباحات.

وكانت قلة الشبع هذه، وعدم الاحتفال الزائد بالطعام والشراب سمة للمسلمين، ولما دخلت جيوش المسلمين أرض مصر استوصف حاكمها جند المسلمين، فوصفوهم بأنهم لا يملؤون بطونهم، وبأنهم يأكلون وهم مستعدون للقيام، فقال: «اتركوا هؤلاء؛ فإنهم لا يُغلبون أبدًا»[٦].

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٣٦.

(٢) أبو سليمان الداراني: زاهد عصره، عبد الرحمن بن أحمد العنسي الداراني، ولد في حدود سنة ١٤٠هـ، وتوفي سنة ٢١٥هـ، رحمه الله تعالى. انظر: نزهة الفضلاء (٢/ ٧٥٢، ٧٥٣).

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٧٥٣، مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣٨٢هـ، (٣٨٧).

(٤) «إحياء علوم الدين»: ١/ ٣٥٦، نقلاً عن «آفات على الطريق»: ٢/ ١٧١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣٨٢هـ ص ٣٨٧.

والأخبار التى رُويت عن سلفنا فى هذا الباب كثيرة متنوعة، يصلح إيرادها لمن كان يطيل الشبع من المترفين النهمين:

قال سفيان بن عُيَيْنة[١]: «جاع سفيان الثورى[٢] جوعًا شديدًا مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئًا، فمر بدار فيها عرس، فدعته نفسه إلى أن يدخل، فعصمه الله ومضى إلى منزل أخته فأتته بقرص فأكله وشرب ماء»[٣]، وقوله: «فعصمه الله»؛ لأنه لا يليق بمثل سفيان أن يدخل إلى الأعراس من أجل الطعام، أو لعله قد كان فى ذلك الفرح من المنكر ما لا يسوغ معه الدخول إليه.

وقال أبو شهاب الحنَّاط[٤]: «بعثت أخت سفيان الثورى معى بجراب إلى سفيان وهو بمكة، فيه كعك وخُشْكنانج[٥]، فقدمت مكة، فسألت عن سفيان، فقيل لى: إنه ربما يقعد دبر الكعبة مما يلى باب الحناطين، فأتيته هناك -وكان

---

(١) سفيان بن عُيينة بن ميمون الهلالى، أبو محمد الكوفى، ثم المكى، ثقة، حافظ، فقيه: إمام حجة، تغير حفظه فى آخر حياته، توفى سنة ١٩٨هـ وله إحدى وتسعون سنة، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٢٤٥.

(٢) سفيان الثورى: سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى، أبو عبد الله الكوفى، ثقة، حافظ، فقيه، عابد، إمام، حجة، مات سنة ١٦١هـ، وله أربع وستون سنة، رحمه الله تعالى. انظر: المصدر السابق ٢٤٤.

(٣) «صلاح الأمة» ١/ ١٩١، نقلاً عن «حلية الأولياء»: ٦/ ٣٧٣.

(٤) أبو شهاب الحناط: موسى بن نافع الأسدى -ويقال: الهذلى- أبو شهاب الحناط، مشهور بكنيته، بصرى، صدوق. انظر: «التقريب»: ٥٥٤.

(٥) خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة، وتملأ بالسكر واللوز أو الفستق، وتقلى؛ وهى كلمة فارسية معربة. انظر: «المعجم الوسيط»: ١/ ٢٤٥.

لى صديقًا- فوجدته مستلقـيًا، فسلمت عليه، فلم يسائلنى تلك المساءلة، ولم يسلم علىَّ كما كنت أعرف منه! فقلت له: إن أختك بعثت إليك معى بجراب فيه كعك وخـشكنانج، قال: فعجِّل به علىَّ!! واستوى جـالسًا، فقلت: يا أبا عبد الله، أتيتك وأنا صـديقك، فسلمت عليك، فلم ترد علىَّ ذاك الرد، فلما أخبرتك أنى أتيتك بجراب كعك لا يساوى شـيئًا جلست وكلمتنى؟! فقال: يا أبا شهـاب، لا تلمنى، فـإن هذه لى ثلاثة أيام لم أذق فيـها ذواقًـا!! قال أبو شهاب: فعذرته»(١).

الله أكبر! ما أطول صبرهم؟!

هذا؛ وقد كـان يجاهد نفسه هذه المجـاهدة وهو غريب فى مكة؛ من أجل طلب الحديث والتفرغ له، وقطع العـلائق التى تصد عنه، ولو كان يملك مالاً لأكل، لكنه كان فقيرًا رحمه الله تعالى.

وقال إبراهيم الحربى(٢) -رحمه الله تعالى-: «أفنيت من عمرى ثلاثين سنة برغيفين، إن جـاءتنى بهما أمى أو أختى، وإلا بقيت جائعًـا إلى الليلة الثانية! وأفنيت ثلاثين سنة برغـيف فى اليـوم والليلة إن جاءتنى امـرأتى أو بناتى به، وإلا بقيت جائـعًا عطشان! والآن آكل نصف رغيف وأربع عـشرة تمرة إن كان بَرْنيًا(٣)، أو نفيًا وعشرين إن كان دَقَلاً(٤)!!»(٥).

---

(١) «صلاح الأمة»: ١/ ١٩١، ١٩٢.

(٢) إبراهيم بن إسحاق البغدادى الحربى، نسبة إلى محـلة ببغداد، صاحب التصانيف، كان إمامًا فى العلم، رأسًا فى الزهد، عارفًا بالفقه، بصيرًا بالأحكام، حافظًا للحديث، قيمًا بالأدب، صنف كتبًا كثيرة. توفى -رحمه الله تعالى- سنة ٢٨٥هـ ببغداد.

(٣) البرْنى: نوع من التمور، مدور، أحمر مشرب بصفرة. انظر: «المعجم الوسط»: (ب ر ن).

(٤) الدقل: أردأ التمر. انظر: المصدر السابق: (د ق ل).

(٥) «صلاح الأمة»: ١/ ٢٨٨.

وقال -رحمه الله تعالى-: «ما كنا نعرف من هذه الأطبخة شيئًا، كنت أجيء من عَشِيٍّ إلى عَشِيٍّ وقد هيأت لى أمى باذنجانة مشوية، أو لعقة بِنٍّ[١]، أو باقة فجل!!»[٢].

وقال أحد أصحابه: «كنت يومًا جالسًا مع إبراهيم الحربى على باب داره فلما أن أصبحنا قال لى: يا أبا على: قم إلى شغلك، فإن عندى فجلة قد أكلت البارحة خَضِرَها، أقوم أتغدى بجزرتها!!»[٣].

وهذا الحافظ حجاج بن يوسف[٤] يقول: «جمعت لى أمى مائة رغيف، فجعلتها فى جراب، وانحدرت إلى شَبَابة[٥] بالمدائن، فأقمت ببابه مائة يوم، أغمس الرغيف فى دجلة وآكله، فلما نفدت خرجت»[٦].

فهؤلاء العظام قد ملكوا أنفسهم، وتغلبوا على شهوة تناول الطيب من الطعام والحسن من الشراب، والإكثار منهما، وهما من أشد الشهوات فتكًا وتأثيرًا، ولهما على النفس مداخل متعددة تسوقها إلى منحدرات لا تليق بها ولا تنبغى لها، ولما ملكوا أنفسهم هذا الملك استطاعوا أن يرتقوا ارتقاء عجيبًا فى العلم، ويرتفعوا إلى أعظم منازله، هذا عدا المراتب الإيمانية العالية التى تسنموا ذُرَاها، وضربوا فيها أعظم الأمثلة.

---

(١) البِنُّ: الشحم.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ٢٨٨.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٨٩.

(٤) الحافظ حجاج بن يوسف: الثقفى البغدادى، المعروف بابن الشاعر، ثقة، حافظ، مات سنة ٢٥٩هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ١٥٣.

(٥) شبابة بن سَوَّار المدائنى، أصله من خراسان، مولى بنى فزارة، ثقة، حافظ، مات سنة أربع أو خمس أو ست ومائتين هجرية، رحمه الله تعالى. انظر: المصدر السابق: ٢٦٣.

(٦) «صلاح الأمة»: ١٠/ ٢٩٢.

محاذير أخرى:

والتوسع فى المآكل والمشارب يفضى إلى محاذير أخرى غير ما ذكرته، فمن ذلك:

١- التعود على نظام الوجبات الثلاث:

وهذا حاصل فى المجتمع، حتى إن من أكل فى اليوم والليلة أكلتين تعجب منه كثير من الناس، ورأوا أنه قد أخل بشىء مهم!! والعاقل لا يأكل حتى يشعر بالحاجة، لا لأنه اعتاد الأكل، وقد كان النبى ﷺ يأكل إذا كان جائعًا ووجد طعامًا، لا يقيد طعامه بزمان معين محدد لا يحيد عنه، فإن لم يجد طعامًا صام ﷺ، وكان يبيت الليالى المتابعة طاويًا؛ أى: خالى البطن جائعًا ﷺ، وهكذا كانت أكثر أحواله ﷺ، تقللٌ من الطعام، وأكْلٌ لما حضر وتيسر منه، وهذا لا ينافى أنه كان يحب اللحم والحلوى والعسل والدُّباء وأطايب الطعام، لكن ما ذكرته من التقلل كان أكثر أحواله ﷺ، وقد بقى على هذا التقلل والتقشف جماعات كبيرة من السلف والخلف.

وهذا الإمام أبو المعالى الجوينى(١)؛ إمام الحرمين، يقول عن نفسه: «أنا لا أنام ولا أكل عادة، وإنما أنام إذا غلبنى النوم ليلاً كان أو نهارًا، وآكل الطعام إذا اشتهيت الطعام، أى وقت كان»(٢).

(١) الإمام الكبير شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالى عبد الملك بن الإمام عبد الله بن يوسف الجوينى، ثم النيسابورى، ضياء الدين الشافعى، صاحب التصانيف، ولد فى سنة ٤١٩هـ، توفى سنة ٤٧٨هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٤٦٨- ٤٧٧.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ٤١١، نقلاً عن طبقات الشافعية للسبكى، الجزء الخامس.

والمعروف من عامة العرب قديمًا أنهم كانوا يتغدون ويتعشون، أما الغداء ففى الغدو أول النهار، وأما العشاء ففى المساء قبل الغروب أو بعده، لا شيء سوى ذلك، وعلى هذا أهل البلاد الباكستانية اليوم فيما أخبرنى به أحدهم؛ وهو أمر معقول مقبول، ومعين على التعبد والتيقظ، والله أعلم.

٢- عدم القدرة على صيام التطوع أو التهاون فى شأنه:

اعتياد الناس التوسع والتفنن فى المآكل والمشارب صادٌّ لهم عن صيام التطوع، وهذا ملحوظ مشاهد، وطبقات الصالحين والدعاة فى حاجة ماسة لفهم هذا الأمر، فهم أهله وأولى الناس به، والتقصير فى صيام التطوع ظاهر فيهم متفشٍّ، وكم من لقاءات للصالحين تعقد يوم الإثنين والخميس، فإذا بك تجد أن الأغلب الأكثر غير صائم، وهذا أمر غير محمود تفشيه واعتياده، ناهيك عن نسيان أكثر الناس صيام الأيام البيض من كل شهر.

نعم إن الصيام غير واجب، لكنه يساعد على تهذيب شهوات النفس وردعها عن كثير من محبوباتها الصادة لها عن بلوغ المعالى، وكان النبى ﷺ كثير الصيام، وكذلك كان عدد من الصحابة رضى الله عنهم، وحسبنا بهم أسوة، ولم يكن سلفنا -رضى الله عنهم- إلا كذلك فهذا داود بن أبى هند[١] -رحمه الله تعالى- قد صام أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد، وكان خزازًا[٢]، يحمل معه غداءه من عندهم، فيتصدق به فى الطريق، ويرجع عشيًا فيفطر معهم، فيظن أهل السوق أنه أكل فى البيت، ويظن أهل البيت أنه قد أكل فى السوق.

---

(١) داود بن أبى هند: القشيرى بالولاء، أبو بكر -أو أبو محمد- البصرى، ثقة متقن، إلا أنه كان يَهِمُ فى آخر حياته، مات سنة ١٤٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٢٠٠.

(٢) بائع خز؛ وهى الثياب.

وهذا عمرو بن قيس المُلائي[١] أقام عشرين سنة صائمًا ما يعلم به أهله، يأخذ غداءه ويغدو إلى الحانوت، فيتصدق بغدائه، ويصوم وأهله لا يدرون[٢].

الله أكبر، هؤلاء هم العظماء حقًا، الذين ساسوا أنفسهم سَوْسًا عجيبًا، فكان الترف منهم بمكان بعيد؛ ولذلك ساد المسلمون زمانًا طويلاً، وارتقوا رقيًا عجيبًا فى شتى مناحى الحياة.

٣- ضعف الورع:

النهم فى طلب الطعام والشراب، والتفنن فى صنعه، والإكثار من تتبع أنواعه وصنوفه قد يضعف الورع، ويوقع فى الولوع فى أطعمة مشتبهة، وقد يؤدى إلى تتبع موائد الأغنياء وطعام الكبراء، والانغماس فى ولائم من يعدون من علية المجتمع ومن الطبقة الرفيعة، وهنا ينسى المرء قواعد الورع ويضل عنها، وقد يحرص على جلب ما استحبه من طعام القوم وألفته نفسه، وهو لا يملك ثمنه، فيزل عن الحلال إلى الحرام، أو من التقوى والورع إلى الولوغ فى المشتبهات، والعياذ بالله.

٤- تضييع بعض المواعيد أو التأخر عنها:

وهذا أيضًا مشاهد، وكم من لقاءات تتم بعد صلاة العصر فيتغيب عنها أو يتأخر بعض المشاركين، فإذا سألته، قال: خرجت من وظيفتى إلى

---

(١) عمرو بن قيس الملائى: أبو عبد الله الكوفى، ثقة، متقن، عابد، مات سنة بضع وأربعين ومائة هجرية، رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ص ٤٢٦.

(٢) «صلاح الأمة فى علو الهمة»: ١/ ١١٥، نقلاً عن صفة الصفوة.

البيت لأتناول طعام الغداء ثم جئتكم!! وهذا عجيب منه، أفلم يكن يستطيع أن يتناول شيئًا كيفما اتفق ليستغنى به ويكتفى، أو أن يصوم ذلك اليوم فيكسب الأجرين: أجر الصيام وأجر إدراك الموعد؟ لكنه الارتباط المعيب بالأكل والشرب على نظام محدد، لا يستطيع الانفكاك منه ولا التحول عنه، أو أنه الاستجابة لشهوات النفس استجابة يضيع معها سبيل المعالى، والأمر الشاق على أنفس الحاضرين المنتظرين أن بعضهم قد ترك طعامه ليوفى بوعده، فإذا هو يفاجأ بمثل هذا المتأخر عن موعده أو المضيع له بسبب الطعام والتعلق به، وأخشى أن يكون فعل هذا مؤثرًا على المروءة، خارمًا لها، وأخشى أيضًا أن يكون غير جائز شرعًا التأخر عن الموعد بسبب تناول الطعام إلا أن يكون مضطرًا لتناوله فى بيته، والله أعلم[١].

ثانيًا: التوسع فى النوم[٢]:

وهذا الأمر من أكثر ما يصد الدعاة والصالحين عن المعالى، ويرغبهم فى القعود عنها، ويعودهم الترفه المفضى إلى الترف والدعة.

والنوم من حاجات المرء التى لا يستطيع إلا أن يوفيها حقها، لكن الأمر قد يرتفع عن الحاجة ليصبح كسلاً وفتورًا وضعفًا، وهذا بسبب ازدياد ساعات

---

(١) انظر: رسالة «ظاهرة التهاون بالمواعيد» لكاتب هذه السطور، ففيها تفصيل لهذا الأمر.
(٢) قد مر (أولاً)، وهو التوسع فى المآكل والمشارب.

النوم وتعدد مراته، وإنى لأعرف بعض الصالحين ينام مبكرًا، ثم بعد الفجر ينام، ثم ينام قبل العصر أو بعده، ليبلغ مجموع ما ينامه قرابة نصف يومه وليلته؛ أى: قرابة نصف عمره، فكم ضيع هذا من حياته؟!

وهناك بعض الجوانب المهمة فى قضية النوم؛ إن أُسىء فهمها أو تجاوز المرء فيها، ضيعت عليه جانبًا مهمًا من حياته، فمن ذلك:

١- الاعتقاد بوجوب النوم ثمانى ساعات لا تنقص:

وهذا بسبب كلام بعض الأطباء فى هذه القضية، وتنبيههم على وجوب أن يفسح المرء لنفسه ويسمح لها بهذه الساعات؛ حتى تكتمل قوته، وكلامهم هذا منقوض بأمور، منها:

أ- اختلاف حال الأشخاص:

إذ بعض الأشخاص لا يجد فى نفسه الحاجة لهذا العدد من الساعات، وهذا مشاهد مجرب معلوم، فإذا ألزمناه بهذه الساعات الثمانى، أو التزمها هو للوهم الذى أدخله فى نفسه الأطباء ضيع عليه من حياته ساعات كان يمكن له أن يستفيد منها أيما استفادة.

ب- اختلاف البيئات:

فالبلاد ذات المناخ البارد تختلف عن ذوات المناخ الحار، والبلاد المزدحمة المتوترة تختلف عن البلاد الساكنة الهادئة، وما يحتاجه هذا هاهنا قد يختلف عن حاجة ذلك هنالك، وهكذا.

جـ- اختلاف الأعمار:

فما يحتاجه الشاب من ساعات النوم يختلف **عما** يحتاجه الكهل أو الشيخ الكبير.

د- اختلاف الأعمال:

فما يحتاجه العامل أعمالا شاقة صعبة يختلف عما يحتاجه الذى يبذل جهدًا أقل، والعامل ببدنه يختلف عن العامل بجهده الفكرى أو العلمى.

هـ- المشاهدة والتجربة:

وذلك أننا نشاهد من حال أشخاص أنهم يكتفون من النوم بساعات خمس، أو أقل قليلاً أو أكثر قليلاً، وقد يداومون على ذلك طوال حياتهم فلا يجدون نقصًا، ولا يحسون تغييرًا فى قواهم ومداركهم، وهذا كله يدل على انتقاض نظرية الساعات الثمانى.

٢- عدم فهم قضية البركة فى الأوقات:

الدعاة والصالحون وطلبة العلم إن أخلصوا نياتهم لله تعالى أسبغ الله تعالى عليهم ثوب العافية، وقواهم وسلمهم من الآفات، ومن ذلك النوم، فإن من طلب شيئًا لله ساعده الله تعالى فى طلبه هذا، وبارك له فى أوقاته كلها؛ ومنها أوقات نومه، حتى صار يكتفى بساعات قلائل، فلا يلحقه تعب ولا يدركه إرهاق، وهذا أمر مشاهد معلوم عند بعض الناس اليوم، وهو مشاهد معلوم من حال سلفنا رضى الله تعالى عنهم، والأخبار فى ذلك كثيرة متعددة، وستأتى قريبًا إن شاء الله تعالى[١].

---

(١) فى فقرة قادمة بعنوان: أمثلة على سهر الصالحين ومغالبتهم النوم.

لكنى أذكر فى هذا المقام حديث فاطمة رضى الله عنها لما تعبت من عمل البيت، وطلبت خادما ليساعدها: فعن على رضى الله عنه أن فاطمة -عليها السلام- شكت ما تلقى من أثر الرحا، فأتى النبى ﷺ بسبى، فانطلقت فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة، فجاء النبى ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم فقال: «**على مكانكما**»، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى، وقال: «**ألا أعلمكما خيرا مما سألتمانى؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعًا وثلاثين، وتسبحان ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**»[(١)].

وقال ابن حجر[(٢)] -رحمه الله تعالى- معلقًا على ما فى الحديث من فوائد:

«وفيه -أى من الفوائد- أن من واظب على هذا الذكر عند النوم لم يصبه إعياء؛ لأن فاطمة شكت التعب من العمل فأحالها ﷺ على ذلك، كذا أفاده ابن تيمية[(٣)]، وفيه نظر، ولا يتعين رفع التعب، بل يحتمل أن يكون من واظب عليه لا يتضرر بكثرة العمل، ولا يشق عليه، ولو حصل له التعب، والله أعلم»[(٤)].

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب على بن أبى طالب القرشى الهاشمى أبى الحسن رضى الله عنه.

(٢) أحمد بن على بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكنانى العسقلانى المصرى، ثم القاهرى الشافعى، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، حفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجد فى الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل فى طلبه، وولى عدة وظائف فى الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة، توفى فى القاهرة سنة ٨٥٢هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦.

(٣) سبقت ترجمته ص:٥٨.

(٤) «فتح البارى»: ٢٣/ ١٤٧.

ولا أرى وجهًا لاعتراض ابن حجر على كلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى؛ إذ حاصل كلامهما واحد، وهو عدم حصول الضرر والمشقة؛ أي: عدم الشعور بالتعب، وقد أخبرني بعض إخواني أنه عندما يأوى إلى فراشه وهو متعب ويذكر هذا الذكر، فإنه ينام ساعات قليلة، ويقوم نشيطًا قويًا، والله أعلم.

٣- عدم مغالبة النعاس الخفيف إن وجد والاستجابة لدواعيه:

بعض الناس إذا أدركه النعاس أو غشيته رغبة فى النوم سارع لتحقيقها، لكنه لو صمد قليلا إزاءها لانقشعت عنه وفارقته، ولا ينبغى للمرء أن يقاوم النعاس الغالب، لكن النعاس الخفيف ينبغى أن يغالب شيئًا ما حتى لا يضيع على المرء وقته، خاصة أن الجالب لهذا النوع من النعاس -غالبًا- هو ما أحاط به المرء نفسه من وسائل الترفيه، نحو الازدياد من الطعام والشراب، أو التمدد على الوثير من الفراش فى غير وقت النوم، أو تكييف الهواء تكييفًا مبالغًا فيه، فكل هذا وأمثاله جالب لأنواع من النعاس، يسهل طردها بتغيير أو تقليل هذه الجوالب.

٤- الإكثار من جوالب النعاس:

وذلك نحو الطعام الكثير المرفه، أو التمدد الطويل فى غير وقت النوم، أو غير ذلك، وقد كان سلفنا -رضى الله تعالى عنهم- يتقللون جدًا من هذه الأمور؛ حتى لا يضيعوا حياتهم بكثرة النوم، فهذا الإمام النووى[1] -رحمه

(١) يحى بن شرف بن مُرِّى، مفتى الأمة، شيخ الإسلام، محيى الدين، أبو زكريا النووى، الحافظ الفقيه الشافعى، الزاهد، أحد الأعلام، ولد بـ«نوى» سنة ٦٣١هـ؛ وهى من قرى حوران شمال =

الله تعالى- يقدم له أحد أصحابه خيارة مقشرة فيردها قائلاً: أخاف أن ترطب جسمي فأنام.

هذا؛ وسيرته في طرد النوم وإطالة السهر عجيبة، ستأتي قريبا إن شاء الله تعالى.

والأمثلة على الترف وأثره في قضية النوم اليوم، وتوسع عدد من الصالحين والدعاة في الأخذ به، كثيرة متعددة، فمن ذلك:

١- التأخر عن المواعيد بسبب النوم:

وهذا كثير مشاهد، ولو كان نومًا غالبًا لعذر مثل هذا، لكنه -على الأغلب- نوم ناشئ عن ترف وتوسع، وكان يمكن له مغالبته شيئًا ما، أو الاكتفاء بالقليل منه حتى يدرك موعده.

٢- عدم قبول المواعيد المبكرة من أجل النوم:

وهذا الصنيع يحرمه من قول النبي ﷺ: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**»، وكان إذا بعث سرية أو جيشًا بعثهم من أول النهار، وكان صخر بن وداعة الغامدي[1] -راوي الحديث رضي الله عنه- تاجرًا، وكان يبعث تجارته أول النهار فأثرى وكثر ماله[2]، وهذا ابن القاسم[3] -رحمه الله تعالى- يقول:

= الشام، ألف مصنفات نفع الله بها المسلمين إلى الغاية، توفي بـ«نوى» سنة ٦٧٦هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «فوات الوفيات»: (٤/ ٢٦٤- ٢٦٨).

(١) صخر بن وداعة الغامدي: صحابي مُقل، حجازي، سكن الطائف رضي الله عنه.. انظر «التقريب»: ٢٧٥.

(٢) انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الإبكار في السفر؛ وسنن الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة.

(٣) ابن القاسم: عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العُتقي، أبو عبد الله المصري، الفقيه، صاحب الإمام مالك، ثقة، مات سنة ١٩١هـ، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ص ٣٤٨.

«كنت آتى مالكا غلسًا فأسأله عن مسألتين، ثلاث، أربع، وكنت أجد منه فى ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتى كل سحر»[١]، والغلس: آخر الليل.

وما أحسن المواعيد التى هى عقب صلاة الفجر فهى مباركة، جليلة الأثر، لكن ما الحيلة وقد غلب على الناس النوم بعد الفجر، فلا سبيل لذلك اليوم إلا قليلا أو نادرا.

أمثلة على سهر الصالحين ومغالبتهم النوم:

لقد ضرب سلفنا الصالح رضى الله عنهم أروع الأمثلة فى هذه القضية، فكانوا لا ينامون إلا قليلا، ويغالبون النوم مغالبة عجيبة.

* فهذا الفضيل بن غزوان[٢] -رحمه الله تعالى- يقول: «كنا نجلس أنا ومغيرة[٣] -وعدَّد ناسًا- نتذاكر الفقه، فربما لم نقم حتى نسمع النداء بصلاة الفجر»[٤].

* وهذا الإمام مالك -رحمه الله تعالى- يصلى الفجر بوضوء العشاء نصف قرن (خمسين سنة)، وهو أمر عجيب غريب، لا يقدر عليه إلا آحاد من الناس على مر القرون[٥].

---

(١) «صلاح الأمة»: ١/ ١٩٨، نقلاً عن «ترتيب المدارك»: ٣/ ١١٠.

(٢) الفضيل بن غزوان بن جرير، الضبى بالولاء، أبو الفضل الكوفى، ثقة، مات بعد سنة ١٤٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ص ٤٤٨.

(٣) مغيرة: يعنى مغيرة بن مِقْسَم الضبى، أبو هشام الكوفى الأعمى، ثقة، متقن، مات سنة ١٣٦هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ص ٥٤٣.

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ١٨٢.

(٥) انظر القصة فى «ترتيب المدارك» للقاضى عياض: ٣/ ٢٥٠.

* وهذا الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد الشافعى الحافظ[1]، ظل أربعين سنة لم ينم الليل، ويصلى صلاة الفجر بوضوء العشاء! رحمه الله تعالى[2].

* وهذا الإمام محمد بن الحسن الشيبانى[3] فقيه الأحناف المشهور، كان قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء: جزء للنوم، وجزء للصلاة، وجزء للدرس.

وكان كثير السهر، فقيل له: لم لا تنام؟ قال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين تعويلاً علينا! وهم يقولون: إذا وقع لنا أمر رفعناه إليه فيكشفه لنا، فإذا نمنا ففيه تضييع للدين!![4].

الله أكبر! إنه يطيل السهر لعلمه أن مسئولية المسلمين وتعليمهم معلقة فى رقبته ورقاب مثله من العلماء والدعاة والصالحين، هذا استشعار للمسئولية عظيم، رحمه الله تعالى.

وكان بعضهم إذا نام استيقظ عدة مرات فى الليلة الواحدة؛ لأن قلبه مشغول بمصالح المسلمين وطلب العلم:

---

(١) أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد الشافعى الحافظ: الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، النيسابورى، صاحب التصانيف، توفى سنة ٣٢٤هـ عن بضع وثمانين سنة، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: (١٥/ ٦٥، ٦٦).

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٤٥، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ١/ ١٢٢.

(٣) محمد بن الحسن الشيبانى: محمد بن الحسن بن فرقد، أبو عبد الله الشيبانى الكوفى، صاحب أبى حنيفة، وفقيه العراق، توفى بالرى سنة ١٨٩هـ -رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٩/ ١٣٤-١٣٦).

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ٢١٨.

* فهـذا الإمام البـخارى[١] -رحمـه الله تعالى- يستيـقظ فى ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، وفى كل مرة يقوم إلى السراج فيضيئه، ثم يقـعد على حـديثـه يصلحه، وقـد تكرر منه هذا -رحـمه الله تعـالى- ورآه أصحابه[٢].

* وهذا الإمام النووى -رحمـه الله تعالى- كان مضرب الأمثـال فى البعد عن الإطالة فى النوم والتمادى فـيه، ويقول عنه الإمام الذهبى[٣] -رحمه الله تعالى-: «وضـرب به المثل فى إكبـابه على طلب العلم ليلاً ونهـارًا، وهجره النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردد على الشيوخ»[٤].

وسأله أحد المشايخ عن نومـه، فقال: «إذا غلبنى النوم استندت إلى الكتب لحظة ثم أنتبه»[٥].

---

(١) الإمام البخـارى: محمد بن إسماعـيل بن إبراهيم الجعفى، أبو عبدالله البخـارى، جبل الحفظ، وإمـام الدنيا فـى فقـه الحـديث، مات سنة ٢٥٦هـ وله ٦٢ سنة، رحمـه الله تعـالى. انظر: «التقريب»: ٤٦٨.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ٢٦٨.

(٣) الإمام الذهبى: الإمام الحافظ الكبـير شمس الدين محمد بن أحمد بن عـثمان الذهبى، محدث عصـره، إمام الوجود حفـظًا، وذهب العصر معـنى ولفظًا، وشيخ الجرح والتـعديل، ولد سنة ٦٣٧هـ، وطلب الحـديث وارتحل وأخذ عن شيـوخ كثـيرين، وسـمع منه الجم الغفـير، وألف المصنفات الكثـيرة النافعـة، وتوفى سنة ٧٤٨هـ، رحمـه الله تعالى. انظر: «طبقـات الشافعـية الكبرى»: (٩/ ١٠٠-١٢٣).

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ٤٨٦.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٤٨٧.

وقال عن نفسه محدثًا تليمذه: «ولما كان عمرى تسع عشرة سنة قدم بى والدى إلى دمشق فى سنة تسع وأربعين[١]، فسكنت المدرسة الرواحية، وبقيت نحو سنتين لم أضع جنبى إلى الأرض!!»[٢].

الله أكبر! ما أعظم همته؟!

ثالثًا: حب التكثر من المال:

وذلك لغرض التكثر والازدياد، لكن من نوى الاستكثار من المال خدمة لدين الله وذودًا عن حياضه، فليس لى معه حديث، وأسأل الله تعالى أن يوفقه لما ارتضاه وانتواه[٣]، ولكن التعلق بمباهج الحياة لابد له من مال وفير، وهذا هو المحذور بأن يطلب المال ليتعلق بالمباهج والمفاتن، ويجلب منها أكبر قدر ممكن.

والله تعالى ذكر المال فى كتابه؛ فبين أنه ساحب لصاحبه إلى ما لا يحمد عقباه إلا أن يعصمه الله، فقال جل من قائل: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

---

(١) أى: وستمائة.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ٤٨٦.

(٣) انظر: «رسالة التنازع والتوزان»، لواضع هذه الرسالة، ففيها مبحث مهم عن المال وطلبه، والمحاذير فى ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١- ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١٢، ١٣].

وقال جل من قائل: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

أى: رأى نفسه قد استغنى، أى: صار ذا مال وثروة، وقيل: استغنى بالعشيرة والأنصار والأعوان(١).

فعلى من ابتلى بالمال الوافر أن يحذر من أن يجره إلى الترف والتوسع فى الطيبات، فإن ذلك مقعد له عن الدرجات العاليات، سالك له فى سلك أهل الترف والبطالات.

هذا؛ وقد قال النبى ﷺ: **«قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه»**(٢).

وقال الحبيب الأعظم ﷺ: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»**(٣).

وقال ﷺ: **«من أصبح منكم آمنًا فى سِرْبه، معافى فى جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**(٤).

---

(١) انظر: تفسير القرطبى؛ «الجامع لأحكام القرآن»: ٢٠/ ١٢٣.

(٢) صحيح الإمام مسلم: كتاب الزكاة: باب فضل التعفف والصبر والقناعة، والكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقص.

(٣) المصدر السابق.

(٤) سربه: نفسه، وقيل: أهله وعياله، وحيزت: جمعت، وحذافيرها: جوانبها. انظر: «تحفة الأحوذى»: ٧/ ١١، والحديث حسن.

وقال ﷺ: «**ما طلعت شمسٌ قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإنه ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا غابت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا**»(١).

وقال عمر -رضى الله عنه- فى دعائه: «اللهم لا تكثر لى من الدنيا فأطغى، ولا تقل لى منها فأنسى، فإنه ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»(٢).

وقال أحد السلف: «شكوت إلى جارة لى ضيق المكسب علىَّ وأنا شاب، فقالت لى: يا بنى: استغن بغنى القناعة عن ذل المطالب، فكثيرًا والله رأيت الكثير عاد وخيمًا، ووالله رأيت القليل عاد سليمًا»(٣).

والقاعدة المبعدة عن حب التكثر من المال والحماية من الترف بسببه؛ ما قاله النبى ﷺ: «**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرًا فنفح فيه بيمينه وشماله، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**»(٤).

فالمال خير إن أُنفق فى خير مهما كثر، والمال شر إن طلبه المرء للتكثر، وساقه إلى الترف والعياذ بالله.

وهناك أمر خطير فى قضية حب المال هذه؛ وهو أنه يجعل للمال عند صاحبه الأهمية المطلقة، ويختلط هذا عادة بإيثار السلامة والدعة، والبعد عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند، وقال الهيثمى -رحمه الله تعالى-: رجاله رجال الصحيح. انظر: «مجمع الزوائد»: ٣/ ١٢٥.

(٢) «قمع الحرص بالزهد والقناعة»: ص ١٣٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب الزكاة: باب الترغيب فى الصدقة.

المشكلات، وكراهة التجديد، فصاحب المال المستكثر منه يرفض الجديد من الأعمال والأقوال والأفكار؛ لأنه ألف الواقع القائم، وتكيف معه، ولا يشعر بخطر منه، بينمات الجديد يحمل المخاطر والمجهول والمغامرة، وهذا عينه هو الذى ساق الكافرين المترفين إلى الكفر بالدعوة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤][١].

رابعًا: التوسع فى المركوب:

الله -تبارك وتعالى- قد أنعم علينا بنعم جليلة[٢]، وهو -جل جلاله- يجب أن يرى أثر نعمته على عبده، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى: ١١]، وقد قال رسول الله الأعظم ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

لكن تلك الآية الكريمة، وذاك الحديث الشريف، يجب أن يفهما فى حدود ما ورد فى سيرة رسول الله ﷺ والسلف الكرام من الصحابة العظام - رضى الله تعالى عنهم- ومن جاء بعدهم؛ إذ هم الذين فهموا عن الله ورسوله ﷺ أكثر مما فهمنا، وعرفوا من مراد الشارع ما لم نعرفه، وفقهوا ما لم نفقهه، وليت شعرى إن لم نَسِرْ على درب أولئك فعلى أى درب نسير؟! وإن لم نقتد بهم فبمن نقتدى؟!

---

(١) وانظر فى هذه القضية الأخيرة: مجلة «المنطلق»، العدد ٣٦، ص: ٥٣.

(٢) هذه مقدمة صالحة لهذه الفقرة ولفقرتى (هـ، و) بعدها.

وهناك بعض الدعاة ونفر من الصالحين قد توسعوا توسعًا عظيمًا فى الأخذ بهذه النعم، حتى أشبهوا أهل الترف والبطر والثراء العريض، ونسوا ما يترتب على ذلك من كسر نفوس سائر إخوانهم من الدعاة والصالحين وطلبة العلم، بلْه كسر نفوس سائر الناس، ولقد كان النبى الأعظم ﷺ قادرًا على ركوب الدواب الفارهة، ولبس الملابس الناعمة والغالية، وسكنى القصور، لكنه آثر -بأبى هو وأمى ﷺ- أن يكون زاهدًا متخففًا، وكذلك آثر نفر من كبار السلف الصالحين من أمته من بعده هذا الصنيع.

ولعل قائلاً أن يقول: وهل هذا التوسع حرام؟ وأقول: معاذ الله، إنه ليس بحرام؛ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، لكن شأن القدوات التخفف، والتحقق بسيرة سيد المرسلين عليه أفضل الصلوات والتسليم، وإيثار ما آثره؛ حتى يصلوا إلى شىء مما وصل إليه ﷺ، ولا يُمنعوا المراتب العالية بسبب إيثارهم شهواتهم واتباع أنفسهم مراداتها، ألم يقل النبى ﷺ: «**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»؟ وما للغريب وعابر السبيل والتعلق بشهوات الدنيا ولذائذها التعلق الزائد؟!

ولعل من مظاهر التوسع فى الأخذ بزينة الحياة الدنيا المغالاة فى أمور ثلاثة: المركوب، والمسكن، والملبس.

أما المسكن والملبس فسيأتى الحديث عنهما إن شاء الله تعالى، وأما المركوب فأقول والله الموفق:

إن العاقل من اتخذ لنفسه مركوبًا صالحًا، يعينه على قضاء حوائجه، ويفى بحوائج أهل بيته، ولو اتخذ أكثر من مركوب فلا بأس بهذا، لكنى وجدت

نفرًا من الصالحين والدعاة وطلبة العلم -بل العلماء- قد نافسوا الأثرياء والأمراء فى التوسع فى اقتناء أحدث الأنواع وأفرهها وأجملها، بل إن بعضهم يستدين ليشترى الأنواع التى يحبها، وبعض الناس يلزم نفسه بأقساط تمتد سنوات طويلات حتى يقتنى السيارة التى يرغبها، وهذا منه عجيب؛ إذ إنه تطلع إلى ما لا يليق به، ولا يصلح له، بل قد لا يستطيع أن يفى بأجرة إصلاح سيارته إن عطلت.

وهؤلاء قد يحتجون لأنفسهم بحجج عجيبة إن حدثهم أحد فى هذه القضية، فبعضهم يقول: هذا أمر مباح فلا تحجر علىَّ، وآخر يقول: أنا أدخل على الأغنياء وعلية القوم، فينبغى أن أشابههم فيما يركبون ويلبسون، وثالث يقول: أنا آتى منهم بأموال للمسلمين تفوق أضعافًا مضاعفة قيمة السيارة، وهذا كله مغالطة للنفس، وإيهام لها بصواب ذلك العمل، وأقول للأول: إن هذا مباح، لكن لم يكن من صنيع عظماء أسلافنا، واتباعهم أولى وإن لم تكن مخالفتهم حرامًا، وأقول للثانى: مشابهة أولئك مدخل شيطانى كبير فاحذر منه، أما الثالث فأطرف الثلاثة، وأدقهم حجة، وألطفهم حيلة لما يصنع، مع وهن حجته لمن تأمل فيها؛ فالأغنياء وعلية القوم إنما يعطونه لما رأوا فيه من إخلاص وهمة ونشاط فى العمل للإسلام، ولما لمسوا من صدقه، لكنهم لم يفعلوا ذلك لجمال سيارة الداعية، ولا لفراهتها، ولا لغلاء ثمنها قطعًا، فينبغى أن نقتدى بالصالحين، ونخلص إخلاصهم، فهذا والله هو الذى يعطف قلوب الناس إلينا، ويحببهم بنا لا غير.

ثم ماذا نقول لإخواننا -خاصة فى المناطق المنكوبة- عندما يرون ما نركب وما نلبس؟! وكيف نعتذر إليهم وثمن سيارة بعضنا يعدل راتبه وراتب ثلاثة

من أمثاله طيلة حياتهم، وقد لا تبلغ رواتبهم مجتمعين ثمنها؟! وماذا نقول لهم وثمن سيارة بعضنا يعدل ثمن سلاح قد يؤثر وينكى فى العدو، أو يعدل ثمن غذاء يطعم قرى بأكملها؟!

وقد يقول هذا المتوسع فى المركوب: إنى أعطى من مالى لأولئك، وأنفق عليهم، وأقول: وماذا عن أقوام اشتروا سياراتهم بأثمان مقسطة، وظلوا يحتالون لأنفسهم سبع سنوات أو أكثر حتى يوفروا مبالغ التقسيط؛ فمن أين يدفع أولئك لإخوانهم أهل النكبات وهم قد أصبحوا بحاجة لمن يدفع إليهم وينقذهم من ورطتهم؟!

وهذا الذى قدمته كله ليس بشىء أمام آفة خطيرة تصيب بعض مقتنى تلك المركوبات الفاخرة، ألا وهى ما يدخل فى نفوسهم من العظمة، والشعور بالعلو والرفعة التى قل من يسلم من آثارها، فهذا عمر -رضى الله تعالى عنه- لما ذهب ليتسلم مفاتيح بيت المقدس من الروم، فاستقبله أبو عبيدة رضى الله عنه وأصحابه، وقربوا إليه برذونًا[(١)]، فقالوا: «اركب هذا البرذون يا أمير المؤمنين، فإنه أجمل وأهون عليك فى ركوبك. . . فنزل عمر عن جمله وركب البرذون. . . فلما هملج[(٢)] به البرذون نزل عنه وقال: خذوا هذا عنى، فإن فى هذا شيطانًا، وأخاف أن يغيِّر علىَّ قلبى»[(٣)]، فانظروا -رحمكم الله تعالى- إلى قول عمر: «أخاف أن يغيِّر علىَّ قلبى»؛ فكيف لو رأى ما نركبه اليوم ونهملج به؟!

---

(١) البغل.

(٢) تبختر.

(٢) «فضائل بيت المقدس»: ص ٢٢٢.

وهنا آفة أخرى؛ وهى أن هذا الذى اعتاد المركـوب الفاخر يصعب عليه أن يفقده، أو أن يركب أقل منه، وقـد يضيع مواعيده بسب عدم وجـود مركوب يلائمه، وقـد هاتفت مرة واحدًا من هؤلاء عندمـا تأخر عن موعده، فـقال: ليس عندى سيارة، فـقلت له: استأجر سيارة وتعـال، فاستثقل هذا استـثقالاً ظهر من حديثه معى بعد ذلك، أإلى هذا الحد وصل الترف بالناس؟!

خامسًا: التوسع فى المسكن:

المسكن الحسن الواسع من جملة النعيم التى أنعم الله تعالى بها على عباده، وقد قال ﷺ: «**من سعـادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقوة ابن آدم ثلاثة، من سـعادة ابن آدم: المرأة الصالحـة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شـقوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**»(١).

والعاقل ينبغى له أن يبنى أو يستأجر لنفسه مسكنًا متوسطًا، يحفظه ويحفظ أهله، ويقضى حاجاته من نوم وطعام واستـقبال للضيف على وجه حسن. . . إلخ.

ونشاهد اليـوم كثيـرًا من المسلمين -بل عـددًا من الصالحين والدعـاة- قد توسع فى المسكن توسعًـا أفضى به إلى أن يسرف إسرافًـا مرذولاً، وترى أنك إذا دخلت مسكنه دخلت قصرًا مشيدًا، فالأثاث فاخر إلى درجة المبالغة، وهو ثمين للغاية، وزائد عن الحـاجة، والمسكن قد جعلت فيه من أسـباب الرفاهية الشىء الكثير، فمثل هذا المسكن يخـشى على صاحبه من الانزلاق إلى الترف بسببه.

(١) قال الهيثمى: رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: «مجمع الزوائد»: ٤/ ٢٧٥.

نعم، إنه ليس من الحرام مثل هذا التوسع لمن بسطت الدنيا عليه، لكن هل وصل حالنا إلى أن نأتى ما ليس بحرام ولو كان مكروهًا معيبًا، بحجة أنه ليس بحرام؟ وهل نأتى كل ما ليس بحرام وإن عاد علينا بشىء كثير أو قليل من الترف الصاد عن المعانى العلية؟ وإن جاز هذا الصنيع لعامة الناس؛ فهل يصلح لصفوتهم من الدعاة والصالحين؟ فعلى المرء العاقل أن يتوسط ولا يجنح إلى الإفراط ولا إلى التقصير، والسعيد من يعرف ماذا يصلح له فيأتيه، موافقًا للحدود الشرعية، والأعراف الاجتماعية، والقواعد الدعوية المرعية.

وإليكم صورًا من مساكن النبى ﷺ وأثاثه؛ حتى تكون عونًا لكسر النفس وشهوتها فى التوسع والإفراط، فقد «كان ضجاع رسول الله ﷺ الذى ينام عليه بالليل من آدم محشوًا ليفًا»[١].

وهذا أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على سرير مُرَمَّل بشريط[٢]، وتحت رأسه وسادة من أَدَمٍ، حشوها ليف، فدخل عليه نفر من أصحابه ودخل عمر، فانحرف رسول الله ﷺ انحرافة، فلم ير عمر بين جنبه وبين الشريط ثوبًا، وقد أثر الشريط بجنب رسول الله ﷺ!! فبكى عمر، فقال له النبى ﷺ: **«ما يبكيك يا عمر؟»**، قال: والله إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله عز وجل من كسرى وقيصر، وهما يعبثان فى الدنيا فيما يعبثان فيه، وأنت يا رسول الله بالمكان الذى أرى، فقال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن حباب، وهو ثقة. انظر: «الفتح الربانى»: ٢٢/ ٨٣. ومعنى أدم؛ أى: جلد مدبوغ.

(٢) أى: نسج بحصير من سعف النخل، ولم يكن على السرير وطاء. انظر: «الفتح الربانى»: ٢٢/ ٨٣.

النبى ﷺ: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»، قال: بلى، قال: «**فإنه كذلك**»[(١)].

وهذا ابن مسعود رضى الله عنه يقول: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «**مالى وللدنيا؟! ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»[(٢)].

وكتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو على الكوفة أميرًا يستأذنه فى بناء بيت يسكنه، فوقع فى كتابه: «ابْنِ ما يسترك من الشمس، ويُكِنُّك من الغيث[(٣)]؛ فإن الدنيا دار بُلْغَة[(٤)]»[(٥)].

وقال ﷺ: «**فراش للرجل، وفراش لأهله، وفراش للضيف، ورابع للشيطان**»[(٦)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، وسند الحديث صحيح. انظر: «الفتح الربانى»: ٢٢/ ٨٣.

(٢) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه، كتاب الزهد، وقال: حديث صحيح.

(٣) يحميك من المطر.

(٤) بلاغ إلى الدار الآخرة.

(٥) «آفات على الطريق»: ١/ ٥٢، نقلا عن «حياة الصحابة» للكاندهلوى: ٢/ ٢٨٦.

(٦) صحيح الإمام مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس، وقال الإمام النووى: «قال العلماء: معناه أن ما زاد على الحاجة فاتخاذه إنما هو للمباهاة والاختيال والالتهاء بزينة الدنيا، وما كان بهذه الصفة فهو مذموم، وكل مذموم يضاف إلى الشيطان؛ لأنه يرتضيه ويوسوس به، ويحسنه ويساعد عليه، وقيل: إنه على ظاهره، وإنه إذا كان لغير حاجة كان للشيطان مبيت عليه ومقيل». انظر: صحيح مسلم بشرح النووى: ١٤/ ٣٠٤.

وهذا عمر رضى الله عنه لما ذهب إلى فلسطين ليتسلم مفاتيح بيت المقدس أقام أيامًا، ثم قال لأبى عبيدة رضى الله عنه: «لم يبق أمير من أمراء الأجناد إلا استزارنى[١] غيرك، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، إنى أخاف أن أستزيرك فتعصر عينك[٢] فى بيتى، قال: فاستزرنى، قال: فزرنى، فأتاه عمر فى بيته فإذا ليس فى بيته شىء إلا لِبَد فرش، وإذا هو فراشه وسَرْجه، وإذا هو وساده، وإذا كِسَر يابسة فى كوة بيته، فوضعها على الأرض بين يديه، وأتاه بملح جريش، وكوز خزف فيه ماء، فلما نظر عمر إلى ذلك بكى، ثم التزمه وقال: أنت أخى، وما من أحد من أصحابى إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه غيرك، فقال له أبو عبيدة: ألم أخبرك أنك ستعصر عينيك؟!»[٣].

هذا، وأبو عبيدة رضى الله عنه هو الأمير العام على جيوش الشام، وإنما ذكرت حاله فى بيته لتنكسر نفوسنا قليلاً وتخشع، ولتمتنع عن التوسع والترف فى المسكن والملبس والمطعم.

سادسًا: التوسع فى الملبس:

وهذا والله مما لم أكن أحب الخوض فيه؛ وذلك لأن الأمر أوضح من أن يبين، لكن ما الحيلة وقد رأيت عددًا من الصالحين يحذو حذو غيره من العامة فى التوسع فى ملبسه توسعًا أفضى به إلى أن يصير كالعروس؟!

---

(١) طلب منه أن يزوره فى بيته.

(٢) تبكى.

(٣) «فضائل بيت المقدس»: ص ٢٢٣.

نعم، إن النبى ﷺ كان يلبس الحلل النظيفة الجميلة، فقد قال أنس بن مالك رضى الله عنه: «كان أحب الثياب إلى النبى ﷺ أن يلبسها الحِبَرَة»(١).
والحبرة: بُرْد يمانى من قطن محبَّر؛ أى: مزين محسن.

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال: «أتيت النبى ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم. . . .»(٢).

لكنه -بأبى هو وأمى ﷺ- كان يلبس أيضًا الخشن من الثياب، بل كان أكثر لباسه ﷺ كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة والسيرة المطهرة، وهذا لا يخفى على قارئ أو مطلع، واتبعه على هذا جماعات كثيرة من الصحابة والسلف رضى الله تعالى عنهم أجمعين؛ فقد كانوا يلبسون ما اتفق لهم لبسه، ولا يغالون فى ثمن الثياب، ولا يتطلبون الفاخر منها، ولا يحرصون على كل ذلك، بل كل من عرف حياة السلف وقرأ سيرتهم يعلم زهدهم فى رفيع الثياب.

لكن تعالوا فانظروا كيف توسع بعض الخواص اليوم، وأصبحوا يحرصون على هندامهم حرصًا عجيبًا، فثمن القماش مرتفع، والتفصيل مغالى فيه، وبعضهم صار يطبع على ثوبه الحروف الأولى من اسمه، وقد نقشت بالإنجليزية؛ فما هذا؟! وهل هذا يليق بالدعاة والصالحين وخواص الناس الذين يفترض فيهم الحرص على العربية وعدم تقليد غيرهم؟ وهل مثل هذا إلا ترف محض، لا فائدة منه على الإطلاق، ومظهر لا يليق بالدعاة والصالحين؟

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب اللباس: باب البرود والحِبَر والشملة.
(٢) المصدر السابق: باب الثياب البيض.

وقل لى بربك: هل رأيت رجلاً من رجال الغرب قد نقش على ثيابه أحرفًا عربية؟ ولو كان فى هذا أدنى فائدة لامتنعت من الحديث عنه، ولكن لا فائدة فيه أبدًا، وهل يستطيع مثل هذا اللابس لهذه الملابس أن يسعى فى أمر ما أو يهرع إلى شىء ما؟ أم أنه سيخاف على ملابسه أن يجرحها النسيم المار، أو يؤثر فيها ذرات الغبار المتطايرة؟!

وأين ملابس اليوم من ملابس النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم، فقد كان ﷺ يلبس ما تيسر، وكان الصحابة رضى الله عنهم يلبسون ما تيسر لهم من اللباس دون المغالاة كما نصنع اليوم، ولقد خاف عمر رضى الله عنه على من كان يقيم بالشام أن يتسرب إليهم الترف، فكتب إلى عامله بالشام: «انظر من قِبَلك فمرهم فلينتعلوا وليحتفوا»؛ أى: ليمشوا أحيانًا بالنعال، وأحيانًا حفاة؛ تدريبًا لهم على الخشونة والتقشف[(١)].

وأنا لا أقول بأن نمشى حفاة اليوم، لكن أريد من سَوْقى هذا الأثر المعنى دون حرفية النص، وأن نتقى الله فيما نلبس من ملابس وننتعل من نعال، فإن إخواننا الفقراء فى أرجاء المعمورة أحوج إلى كسرة خبز وشربة ماء منا إلى غالى الثياب وفاره النعال، والله أخشى أن يحاسبنا الله تعالى على ولوغنا فى هذا الترف العجيب وولوعنا به.

هذا وقد قال ﷺ هاديًا للتوسط فى الملبس: «**من ترك اللباس** -أى: الفاخر منه- **تواضعًا لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها**»[(٢)].

---

(١) مجلة الأزهر: الجزء ٨، العدد ٦١، ١٤٠٩هـ.

(٢) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: أبواب صفة القيامة، وهو حديث حسن.

ويكفى تخويفًا من حب التوسع فى الملبس والترف فى تعاطيه ما قاله النبى ﷺ داعيًا على فاعله: «**تعس عبد الدنيا، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»[(١)].

ولعل المرأة فى هذا الأمر أن تكون أكثر وقوعًا فيه من الرجال، وأشد أخذًا بأسباب التأنق وكمال الزينة، لكن عليها أن تحذر كل الحذر، فليس معنى أنها من أهل الزينة والتجمل أن ترتع فى ذلك، وأن تجاوز الحدود لتحضر كل مناسبة بحلة جديدة وزينة جديدة، وتغالى فى كل ذلك بما لا يحسن ولا يستساغ، وهذا المرض امتد إلى نساء يفترض أن يكن داعيات صالحات قدوات لغيرهن:

«أنا لا أفهم ولا غيرى من العقلاء يفهم أن مشبك الملابس يشترى بآلاف من الجنيهات، وأن جورب الحرير يساوى ثمن ملابس بأكملها... كما لا أفهم أن يكون طالب العلم مشغولاً بنفسه، ومشغولاً بأناقته إلى الحد الذى يخرج به عن كونه طالبًا، وعن حقيقته طالبًا، وأن يكون مثلاً سيئًا للفقراء ومتوسطى الحال من إخوانه الطلبة، يفسد عليهم أمورهم، وينغص عليهم عيشهم، ويجعلهم يتطلعون إليه تطلع حقد وحسد وكراهية، وخاصة إذا لم يكن عند هؤلاء الطلبة المترفين من المزايا النفسية والخلقية والعقلية ما يجعلهم يستأهلون هذه النعمة، ويجعلهم يتفاخرون ويتكاثرون بهذه الأعراض الزائلة الحائلة... لا يسوء الفقير أن يرى الغنى أمامه أنيقًا رشيقًا، إنما يسوؤه أن يراه

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب الجهاد، باب الحراسة فى الغزو وفى سبيل الله.
ومعنى الخميصة: الثياب الملونة أو المخططة، ومعنى «إذا شيك فلا انتقش»؛ أى: دعاء عليه إذا أصابته شوكة لا يجد من يخرجها له بالمنقاش.

عاريًا من المزايا، أنانيًا، ينفق على شهواته ونزواته ومظاهره الكاذبة ما لو أنفق فى الصحيح من الأغراض لكسب حمد الناس، وجزاء الخير والعمل الصالح؛ الذى ينتفع به كثير من الناس»(١).

وهذا الذى ساقه الكاتب مثال لأصناف من الناس فضلت أن تتوسع فى الملبس توسعًا مذمومًا ساقها إلى الترف والدعة.

ومما يجمع أنواعًا من الترف المذكور آنفًا؛ وهو مدعاة إلى التوسع فى كل ذلك المذكور توسعًا معيبًا مترفًا:

الترف حال السفر إلى الخارج:

وهذا مشاهد معلوم، يشاهده المتابع لحال كثير من الأسر التى تسافر إلى الخارج لقضاء أوقات الإجازة الصيفية، خاصة أغنياء الأسر، فحدِّث ولا حرج عن المليارات من الريالات التى تنفق فى الخارج، على أمور أكثرها ترف محض وتعلق زائد بالشهوات، ولو أُنفقت هذه الأموال فى البلاد الإسلامية لهان الخطب قليلاً، لكن المصيبة أنها أُنفقت -فى معظمها- فى الدول غير الإسلامية، فازداد الطين بلة.

ومظاهر الترف حال السفر متعددة فى المسكن والمطعم والملبس والمركوب، وغير ذلك كثير.

نعم، إن السفر إلى الخارج هو مظنة الوقوع فى الترف؛ لذلك ينبغى الاقتصار على السفر للداخل، وإن كان ولابد من السفر للخارج فليقتصر على السفر إلى البلاد الإسلامية؛ التى قد لا يضطر المسافر إليها للبذخ والإنفاق العريض، وتضييع المال فى أمور أقل ما يقال فيها: إنها داخلة فى باب الترف

(١) «خلق ودين»: ص ١٥٣.

دخولاً أوليًا، ولعمر الحق ينبغى أن يترفع الدعاة عن مثل هذا السفر، وينأون بأنفسهم عنه.

ولله در الحافظ السِّلفى[١] الذى سكن الإسكندرية مدة طويلة جدًا، فلم يترك داره لينظر فى أرجائها ويجول فيها بقصد الفرجة، وهى بقربه، لا يحتاج إلى سفر لذلك، وقد قال عن نفسه: «لى ستون سنة ما رأيت منارة الإسكندرية إلا من هذه الطاقة!!»[٢]، يريد نافذة غرفته.

فينبغى على عقلاء الدعاة وطلبة العلم والصالحين ألا يسافروا إلا لغرض مشروع، وإن حصل لهم شىء من الفرجة والترويح أثناء سفرهم فلا بأس، لكن أن يسافروا ويضيعوا المال والزمان من أجل الاسترواح فقط فهذا تضييع وبعد عن المعالى.

سابعًا: التوسع فى النكاح:

النكاح من سنن سيد المرسلين عليه أفضل الصلوات والتسليم، لا جدال فى هذا ولا مماراة، ومن رغب عن سنة النبى ﷺ فقد باء بالخسران والخيبة، ولكنْ هناك صور من الترف فى النكاح لابد من توضيحها فى ضوء الأمور الآتية:

١- مؤونة النكاح:

ينبغى على الرجل ألا يسرف فى مؤونة النكاح إن تعلقت نفسه به، فعليه أن يلتمس بركته بابتغاء اليسر فيه، وعدم المغالاة فى المهر وتكاليف النكاح

---

(١) الحافظ السلفى: أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهانى، الإمام العلامة المحدث، الحافظ، المفتى. ولد سنة ٤٧٥هـ، ولقبه السِّلفى -بكسر السين- بسبب غلظ شفته، وارتحل كثيرًا، ثم استقر بالإسكندرية، وتوفى بها سنة ٥٧٦هـ وقد جاز المائة، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥-٣٩.

(٢) المصدر السابق.

المتعددة، وليعلم الأخ الداعية أنه مقتدًى به ومنظور إليه فى هذا الشأن، وهناك عدد من أغنيـاء الدعاة والداعيات إن أرادوا النكاح أسـرفوا فى مؤونته إسـرافًا عظيمًا، حتى تخالهم من أبناء كسرى وقيصر، لا من أبناء الدعوة الإسلامية!! فأين الحذر من كسـر قلوب فقراء الناس ومتوسطيـهم؟! وأين مراعاة أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ باجتناب الإسـراف؟! بل أين المبادئ التى تربى عليها الدعاة فى شأن مقاسمة الأمـة سراءها وضراءها؟! والأمة اليوم لا تكاد تخرج من ضراء حتى تقع فى أخرى، فالله الله معشر الدعاة، أفيقوا من هذه الغفلة، وعليكم بالقصـد فى شئونكم كلهـا حتى يبارك الله تعـالى لكم فى دعوتكم، وتتطابق أقـوالكم مـع أعمـالكـم، وعليكم بالنظر فى سنـة النبى ﷺ وهديه وهدى أصحابه؛ لتعلمـوا كيف كان نكاحهم سهلاً ميـسورًا، لا شطط فيه ولا إسراف، ولا تصنع ولا مغالاة ولا مباهاة.

٢- طاعة الزوج فى مطالبها الدنيوية والتوسع فى ذلك:

لا شك أن للزوج على زوجهـا حقوقًا فى النفقـة والسكنى واللباس، لكن عددًا من الدعاة توسعوا فى هذا الشأن بدعوى الإنفاق على الزوج وإرضائها؛ حتى ساقهم ذلك إلى التبـذير المنهى عنه، بل قد ساق عددًا منهم إلى ارتكاب الأمور المشـتبهات، التى من ارتكبـها توسعًا وتأنقًـا يوشك أن يرتع فى الحرام الصريح، والعياذ بالله.

والمجتمع قد فرض على كثير من أفراده صورًا معينة من العيش، أكثرها قد لابسها من الترف ما الله به عليم، فهذه امرأة تريد أن تحضر كل مناسبة بملابس جديدة، وتلك أخـرى تريد أن تغير أثاث منزلها كل سنة أو سنتـين بلا حاجة إلا محض الترف والتـوسع والتأنق، وهذه ثالثة ترغب فى السـفر للخارج كل

سنة بدعوى قضاء إجازة الصيف، بقطع النظر عن المصاريف الباهظة التى سيتكلفها الزوج، وربما دعاه ذلك إلى الاستدانة، وهذه رابعة تريد الخروج إلى الأسواق بلا حاجة حقيقية إلا التوسع المحض والترف المهلك، وخامسة وسادسة وسابعة، والزوج يطيع فى ذلك كله، ولا يملك الاعتراض!! وقد تجد الزوجين أو أحدهما من الدعاة ثم يقعان فيما ذكرته آنفًا بتحرج أو بدون تحرج، مع أنه يفترض أن يكون الزوجان الصالحان -اللذان قد يُعَدَّان فى جملة الدعاة الصالحين -يفترض أن يكونا قدوة لسائر الناس، وأن ينشئا بيوتًا تصلح أن تعد نموذجًا حسنًا يقتدى به الآخرون ويسيرون عليه، لا أن يقلدا المترفين والمترفات فى طرائق عيشهم فيزلوا ويضلوا.

٣- التعدد بلا حاجة:

الداعية مطالب بإعادة المجد لهذا الدين، وعمل كل ما يستطيعه لإرجاع الناس لدينهم، وهذا يستغرق منه جل أوقاته، هذا إن كان صاحب همة يريد أن يحقق أثرًا فى دنيا الناس، والتعدد لا أناقشه أبدًا من الناحية الشرعية، فهو جائز، بل قد يكون مستحبًا فى أحوال؛ لكنى أتحدث عما رأيته وسمعته فى شأن التعدد فى حياة الدعاة خاصة، فأقول:

الداعية واحد من الناس باعتبار، ومتميز عنهم باعتبار آخر، فهو واحد من الناس فى أحاسيسه ومشاعره الشخصية، وميوله ورغباته، وحاجاته... إلخ، لكنه متميز عن الناس فى ارتفاعه بتلك المشاعر والأحاسيس والحاجات إلى ما يخدم دعوته ولا يضرها، ولا ينافى أعماله الدعوية اليومية المطلوبة أو المتوقعة منه، ولقد رأيت عددًا من الدعاة لا يكاد يفقه من شأن التعدد إلا أنه سنة، أما عدا ذلك من الاعتبارات فهو غافل عنها، والاعتبارات التى أعنيها هى:

أ- مراعاة الحاجة الفطرية للتعدد:

إذ إن بعض الدعاة قد يعدد لأن صاحبه قد تزوج بأخرى، فأصابته الغيرة، وآخر يعدد لأن صاحبه قد ألح عليه في شأن التعدد، وأخبره أنه هو الأصل، وأفهمه بصورة أو بأخرى أنه إن لم يعدد فهو قد قصر في الأخذ بسنة من السنن، أو أهمل أمرًا مهمًا من الدين، وثالث يعدد نكاية في زوجه، إثر خصام بينهما، ورابع يعدد لمطلق المباهاة والافتخار برجولته في المجالس!! فهؤلاء المعددون لم يجدوا حاجة في أنفسهم وميلاً إلى التعدد، لكنهم فعلوا ذلك لأسباب جانبية لا علاقة لها بأصل القضية.

نعم إن فعلهم مباح، لكن لم يدفعهم إليه حاجة فطرية ملحة، والعاقل من أتى ما دفعته إليه حاجته، لا ما دفعه إلى فعله الآخرون.

ومثل هذا غالبًا ما يندم على صنيعه، وقد علمت أن بعض هؤلاء يسارع إلى طلاق الأخرى الجديدة لمجرد إشارة من القديمة الأولى أو الصلح معها؛ فهل هذا قد عدد لحاجة ماسة في نفسه يجدها؟ أشك في هذا كثيرًا.

أما الداعية الذي يعلم من نفسه حاجة للتعدد بحيث لا يقضيها الاقتصار على واحدة، فهذا إن أقدم على التعدد فلا يلومه أحد، وهو أَصْون لنفسه وأجمع لفكره؛ بحيث يتفرغ لدعوته بلا منغصات.

ب- القدرة على التعدد:

والقدرة التي أعنيها هي القدرة المالية، والجسدية، والنفسية، أما من يعدد وليس في مقدوره التكفل بالعيش الكريم لأسرتين أو أكثر، أو يعدد وهو ليس صاحب قدرة جسدية ولا نفسية لتقبل هذا الأمر، فصنيعه هذا ضرب من

العبث يتنزه العاقل عنه، وكم رأينا من أشخاص عددوا فصاروا عالة على غيرهم، واعتادوا الاستدانة بعد أن كانوا فى معزل عنها، ووقعوا فى أمور كانوا منها فى عافية وسلامة، لكن المرء إذا لم يحكم شأنه وقع فيما لا ينبغى لمثله الوقوع فيه.

جـ- ألا يشغله التعدد عن معالى الأمور:

وهذا ضابط للدعاة مهم؛ إذ إن من عدد فانشغل عن الدعوة، أو عن طلب المعالى فى كل النواحى، فهذا قد حُرم خيرًا كثيرًا، وفاتته المنازل العالية، وأما من جمع بين طلب المعالى والتعدد، فهذا موفق كامل، لكن قل والله مثاله.

وإليك أيها القارئ حكاية نفيسة عن الإمام أبى بكر الأنبارى[1]؛ إذ مضى يومًا إلى النخاسين[2]، ورأى جارية تُعرض حسنة الصورة، كاملة الوصف، قال: فوقعت فى قلبى، ثم مضيت إلى دار أمير المؤمنين الراضى بالله[3]، فقال لى: أين كنت إلى الساعة؟ فعرَّفته، فأمر بعض أسبابه[4]، فمضى فاشتراها وحملها إلى منزلى، فجئت فوجدتها، فعلمت الأمر كيف جرى،

(١) أبو بكر الأنبارى: محمد بن القاسم بن محمد بشار الأنبارى، المقرئ النحوى، الإمام الحافظ اللغوى ذو الفنون، ولد سنة ٢٧٢هـ، وكان صدوقًا دينًا من أهل السنة، توفى سنة ٣٢٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٢٧٤ -٢٧٩.

(٢) الذين يبيعون العبيد.

(٣) الراضى بالله: الخليفة أبو إسحاق محمد بن المقتدر بالله الهاشمى العباسى، ولد سنة ٩٧هـ، وتوفى سنة ٣٢٩هـ، رحمه الله تعالى، وبويع بعده للمتقى بالله أخيه. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٠٣، ١٠٤.

(٤) من يقوم بأعماله وحاجاته.

فقلت لها: كونى فوق إلى أن أستبرئك[١]، وكنت أطلب مسألة قد اختلّت على، فاشتغل قلبى عن علمى، فقلت للخادم: خذها وامض بها إلى النخاسين، فليس قدرها أن تشغل قلبى عن علمى! فأخذها الغلام، فقالت: دعنى أكلمه بحرفين، فقالت: أنت رجل لك محل[٢] وعقل، فإذا أخرجتنى ولم تبين ذنبى لم آمن أن يظن الناس بى ظنًا قبيحًا، فعرِّفنيه قبل أن تخرجنى، فقلت لها: ما لك عندى عيب غير أنك شغلتينى عن علمى، فقالت: هذا أسهل عندى.

قال: فبلغ الراضى بالله أمره، فقال: «لا ينبغى أن يكون العلم فى قلب أحد أحلى منه فى صدر هذا الرجل»[٣].

فهذا عالم لم يرض أن يستمتع بجارية حتى لا تشغله عن علمه، ولا تنأى به عن فضله ومكانته.

والزواج يشغل المرء عن المعالى، لكن لابد له منه، لكن الشأن فى التعدد بلا حاجة، وهذا الإمام أبو بكر النيسابورى الشافعى[٤] يخبرنا عن حاله قبل الزواج وبعده، فيقول: «تعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل، ويتقوت كل يوم بخمس حبات، ويصلى صلاة الغداة[٥] على طهارة العشاء الآخرة؟ ثم قال: أنا هو، وهذا كله قبل أن أعرف أم عبد الرحمن! أيش أقول لمن زوجنى؟! ثم قال: ما أراد إلا الخير»[٦].

---

(١) أتبين براءة رحمك من الحمل. (٢) مكانة.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٢٤، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ٣/ ١٨١ -١٨٦، «وفيات الأعيان»: ١/ ٥٠٣.

(٤) سبقت ترجمته. (٥) الفجر.

(٦) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٤٥، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ١/ ١٢٢.

د- معرفة الفارق بين التعدد فى زمننا وزمان أسلافنا:

إذ إن أسلافنا إلى زمان الأجداد كانوا إذا عددوا فإن الواحد منهم يبقى امرأتيه أو نساءه فى بيت واحد غالبًا، وأطفاله تحت رقابته مجتمعين، والمؤونة عليه فى ذلك قليلة، والمجتمع يقبل منه ذلك كله بلا نكير ولا عويل، لكن اليوم إن عدد الشخص فعليه أن يعى المنغصات التالية:

١- الزوجة الجديدة لا تقبل -فى غالب الأحوال- إلا بمسكن منفرد وبعيد عن منزل الزوجة الأولى[١]، وهذا الأمر يقضى بانقسام الرجل بين بيتيه أو بيوته، وأن يتكلف النظر فى أحوال أهله تكلفًا قد يشغله عن أمور دعوته شغلاً جزئيًا أو كليًا، والعياذ بالله.

ويأتى هنا من قد يقول: إن النكاح عبادة؛ نعم، هذا صحيح، لكن أليست الدعوة عبادة أيضًا؟ وشتان بين العبادتين.

٢- تفرق أهل الرجل وأولاده على هذا النحو يصعب عليه تربيتهم، والنظر فى عباداتهم والتزامهم بالإسلام فى حياتهم، وهذا العصر الذى نعيش فيه عصر صعب، ملىء بالملهيات الصارفات والمعاصى الخطيرات، وكان من قبلنا -على قلة المعاصى فى زمانهم وسذاجتها- يجمعون أهلهم وأولادهم فى مكان واحد غالبًا، فلما صرنا إلى زماننا هذا اضطر الرجل إلى أن يفرقهم غالبًا، فتفرق قلبه مع تفرقهم، وتشتت همه مع تشتتهم وخوفه عليه.

(١) أنا أتحدث هنا عن حال الأغلب الأعم من الناس، أما مجتمعات القرى والبلدات البعيدة فلها أوضاعها الخاصة بها، التى لا يصح أن تكون منغصة على ما قررته هاهنا، أو أن تكون هى القاعدة التى يبنى عليها.

٣- المجتمع اتجه بقوة إلى رفض التعدد، وصار هذا الأمر يصور على أنه جريمة وخيانة والعياذ بالله، فمن تصدى لهذا الأمر -التعدد- فى زماننا هذا فقد عرض نفسه لسهام وكلام قد يضطره لقضاء وقت طويل فى رد ذلك عنه كان هو أحوج ما يكون إلى قضائه فى طلب العلم أو نشر الدعوة، ولا يعنى هذا الاستسلام لما فرضه المجتمع، لكنى أنبه إلى ما قد ينشغل به الداعية أو طالب العلم إن عدَّد فى مثل هذا المجتمع، وصار غرضًا لسهام الناس.

٤- هدم النكاح الأول فى كثير من الأحوال بسبب التعدد، وهذا مشاهد معلوم، وينبنى عليه تفرق الأولاد، وعداوتهم للوالد أو لأولاد الأب أو لكليهما معًا، وفى ذلك من المفاسد والشرور ما فيه.

هـ- ضبط ميزان الفهم فى هذه القضية:

حيث إن بعض الدعاة الصالحين قد يجادل فى كل هذا الذى أوردته أو بعضه بدعوى أن الرسول ﷺ قد عدد، والصحابة -رضى الله عنهم- قد عددوا، وكانوا مشغولين كل الانشغال، وهم سادة الدعاة وقادتهم، فمثل هذا المجادل لم يفهم ما أوردته آنفًا من أوجه الخلاف بين زماننا وزمانهم، ويتلخص فى الآتى:

- قبول المجتمع الطاهر آنذاك للتعدد بلا نكير ولا كثرة مشكلات أو كبير عقبات.

- اجتماع الرجل حول أهله وسهولة متابعتهم.

- قلة المعاصى أو ندرتها فى زمانهم الطاهر؛ بحيث لم يكن يشغلهم الخوف على الأهل والأولاد عن هدفهم الأسمى.

ومما يعين على ضبط الميـزان فى هذا الأمر؛ هو أن بعض من انشغل بطلب العلم أو الدعوة أو التـعبد أو كل ذلك كـان قد اكتفى بواحـدة، أو لم يتزوج على الإطلاق، ولم يتسر[١]، وهؤلاء جملة وافرة من سلفنا الصالح ومن جاء بعدهم، ومن هؤلاء الأطهار:

١- مـالك بن دينار السـجسـتانى، أبو يـحيى الزاهد، التـابعى المتـوفى سنة ١٢٧هـ، رحمه الله تعالى.

٢- إبراهيم بن أدهم التميـمى، أحد مشاهير العـباد وأكابر الزهاد، توفى سنة ١٦٢هـ، رحمه الله تعالى.

٣- محمد بن جـرير الطبرى، أبو محمد، الإمام العـالم المشهور، توفى سنة ٣١٠هـ، رحمه الله تعالى.

٤- أبو إسحاق الشـيرازى، إبراهيم بن على الفيروزآبادى الشيـرازى الشافعى الإمام، المتوفى سنة ٤٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٥- أبو الفتح نصر بـن فتيان، ناصح الدين الحنبلى، النهـروانى ثم البغدادى، الفقيه الزاهد، توفى سنة ٥٨٣هـ، رحمه الله تعالى.

٦- أبو زكريا يحـيى بن شرف النووى، الشـافعى، الإمام الكـبير المشـهور، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٧- أحمد بن عبـد الحليم بن عبد السلام، ابن تيميـة، شيخ الإسلام، الإمام المشهور، المتوفى سنة ٧٢٨هـ، رحمه الله تعالى.

---

(١) لم تكن له جارية.

٨- محمد بن أبى بكر بن عبد العزيز، عز الدين الحموى الشافعى، ابن جماعة، الأستاذ الإمام، الشافعى، المتوفى سنة ٨١٩هـ، رحمه الله تعالى.

٩- على بن حسين بن عمر، العالم اليمنى المكى، المتوفى سنة ١٠٦٩هـ، رحمه الله تعالى[١].

فهذه جملة من العلماء الذين لم يتزوجوا قط، والله أعلم بسبب ذلك، وليسوا -فى هذا- قدوة لنا، لكنى إنما ذكرتهم لبيان ما يعين على ضبط الاندفاع فى قضية التعدد بدون داع أو حاجة، وكان الإمام السخاوى[٢] -رحمه الله تعالى- قد نقل نقلاً لطيفًا فى هذه المسألة؛ إذ قال -رحمه الله تعالى- متحدثًا عن أحد مشايخ زمانه: «انقطع إلى الله تعالى، وأعرض عن الاجتماع بالناس، بل والإفتاء، إلا باللفظ أحيانًا. . . وكان يقول مشيرًا لأعباء التزويج على سبيل المماجنة[٣]: لو كنت الشركة تصح فى الزوجات لشاركت فى جزء من أربعة وعشرين جزءًا!!».

وهو مسبوق بنحوه من الأوزاعى[٤]؛ فإنه قال لصديق له: «إن استطعت أن تكتفى فى هذا الزمان بنصف امرأة فافعل!!»[٥].

---

(١) سردت هؤلاء مقتبسًا من كتاب «الذين لم يتزوجوا من العلماء وغيرهم»، للشيخ بكر أبى زيد حفظه الله تعالى.

(٢) الإمام السخاوى: الشيخ الإمام العلامة الرُّحَلَة الحافظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى القاهرى الشافعى، ولد سنة ٨٣١هـ، وأخذ عن كثير من المشايخ، واختص بشيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى، وكان يحبه ويثنى عليه، وله مصنفات كثيرة، توفى سنة ٩٠٢هـ بالمدينة المنورة بعد مجاورته زمنًا فيها، رحمه الله تعالى. انظر: «النور السافر»: ص١٦-٢٠.

(٣) الممازحة والمداعبة.

(٤) الأوزاعى: عبد الرحمن بن أبى عمرو الأوزاعى، أبو عمرو الفقيه، ثقة جليل، مات سنة ١٥٧هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ص ٣٤٧.

(٥) الذين لم يتزوجوا من العلماء ص ١١٦، ١١٧، نقلاً عن «الضوء اللامع»: ٤/ ١٧.

يقول مثل هذا الإمام الأوزاعى فى ذلك الزمـان؛ فماذا نقول نحن فى هذا الزمان؟!

وأختم حديثى بنقل لطيف عن ابن الجوزى[١] -رحمه الله تعـالى- حيث قال: «من أعظم الضـرر الداخل على الإنسان كثرة النسـاء، وإنه أولاً يتشتت همه فى محبتهن، ومـداراتهن وغيرتهن، والإنفاق عليهن، ولا يأمن إحداهن أن تكرهه وتريد غيـره، فلا تتخلص إلا بقتله، ولو سلم من جـميع ذلك لم يسلم فى الكسب لهن، فإن سلم لم ينجُ من السآمة لهن أو لبعضهن، ويطلب ما لا يقدر عليه من غيرهن، حتى إنه لو قدر على نساء بغداد كلهن، فقدمت امرأة مستترة من غير البلد، ظن أنه يجد عندها ما ليس عندهن. . . وإذا سلم من كل أذى يتعلق بهن أنهك بدنه فى الجماع، فـيكون طلبه للالتذاذ مانعًا من دوام الالتذاذ، ورب لقـمة منعت لقـمات، ورب لذة كـانت سببًـا فى انقطاع لذات، والعاقل من يقـتصر على الواحدة إذا وافقت غـرضه، ولابد أن يكون فيها شىء لا يوافق، إنما العمل على الغالب»[٢].

فلا ينبغى إذًا أن يأتى شخص بعد هذا كـله ليقدم على التعدد بلا روية ولا نظر فى عواقب الأمور بدعوى أنه سنة وأنه الأصل، ولا يُفهم من كلامى آنفًا أننى ضد التعـدد، لا بل أدعو كل من يستطيع ضبط شـئونه على النحو الذى ذكرته آنـفًا، وكان يرى فـى نفسه القـدرة على هذا بالأوجـه المتعددة لـلقدرة

(١) ابن الجوزى: الشـيخ الإمام الحافـظ المفسر، أبو الفـرج عبد الرحـمن بن على بن محـمد. ابن الجوزى، ولد سنة تسع أو عشـر وخمسمائة ببغـداد، وسمع من مشايخ كثيـرين، وكان رأسًا فى الوعظ بلا مدافعة، وله مـصنفات كثيرة، وتوفى سنة ٥٩٧هـ ببغـداد، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٢١/ ٣٦٥-٣٨٤).

(٢) «صيد الخاطر»: ص ٣٦١.

المذكورة آنفًا، أدعوه إلى الإقدام على التعدد بلا تردد، وأبارك له وأشد على يده، فالعوانس كثر، والمجتمع بحاجة إلى التعدد لمعالجة هذه الظاهرة، لكن كلامي موجه للدعاة الذين هم صفوة المجتمع بلا ريب، ومطلوب منهم أمور جليلة، ثم تراهم يعددون فينكصون على أعقابهم، أو يكتفون من الدعوة بالاسم دون المعنى، فهذا المسكين قد فرَّط في شيء عظيم بسبب شهوة في قضية لم يحكمها ولم ينظر في عواقبها.

أما عوام الناس الذين لا هدف لهم، ولا عمل يشغلهم، فلعله من باب صيانتهم وبعدهم عن الرذائل أن يعددوا إن أخذوا ببعض الجوانب المذكورة آنفًا، واحتاطوا لأنفسهم، هذا؛ وإن كانت هذه الحيطة ليست من طبع العوام المتهافتين على ما يشتهونه، لكن من أحكم منهم ما ذكرته استفاد استفادة عظيمة.

الأثر الثالث: التباطؤ في قضاء الأمور:

الترف والانغماس فيه واعتياده والميل إليه جالب للتباطؤ في قضاء الأمور، والقعود عن إتمامها على وجهها الذي ينبغي لها؛ إذ المترف غالبًا يميل إلى التسويف في الشئون التي يراها صعبة أو ستجر عليه شيئًا من التعب والمعاناة، ويخشى من ملابستها والتعرض لها، فتراه يقضي الأمر -الذي يتم في يوم- في شهر، ويستغرق الأمر اليسير من حياته زمنًا طويلاً، هذا إن فرغ منه أصلاً!! وهكذا تراه دومًا وأبدًا يتخبط في شئونه ويسوِّف في قضائها، فتنقضي حياته وهو لم يقدم شيئًا ذا بال، ولم يرتق في سلم المجد الدرجات التي كان ينتظر من مثله أن يرتقيها.

وهذا التباطؤ -لمن أراد أن يصيب كبد الحقيقة- هو سر تأخر الدعوات وانصراف وجوه الناس وسُراتهم عنها، ومكوثها دهرًا طويلاً فى مكانها، لا تكاد تتزحزح عنه، والعجب أنك ترى من يتباطأ فى شئون الدعوة إلى الله تعالى غزالاً رشيقًا سريعًا فى شئون حياته الخاصة وما يدر عليه مزيدًا من الرفاهية والإخلاد إلى الأرض، فيطول عجبك حينئذ فتتساءل: أهذا هو ذاك؟! وما هو السر الدقيق الذى يدعوه لمثل هذا الصنيع؟ والجواب واضح كل الوضوح عندى:

الذى يدعوه لمثل هذا هو الترف المقعد عن المعالى، الموقع فى سفساف الأمور ودناياها، المبعد عن ملابسة الأمور الصعبة، والذى يدعو النفس إلى التخوف من كل إقدام وإقبال.

أعرف رجلاً محسوبًا على الدعاة تجاوزًا ومداراة، من شأنه أن يملأ المجالس ضجيجًا إن حضر، ويطالب بالحركة التى تجلب البركة، وقد أراد منه بعض صحبه أمرًا هينًا يسيرًا عليه يقينًا، فى متناول قدراته ومواهبه، بل هذا الأمر يكاد يوافق رغبته ومشتهاه، هل تدرون كم مضى على هذا الأمر فلم يقض حتى الآن؟ قرابة خمس سنوات كاملات، فبربكم أخبرونى: أمر يُقضى فى شهر أو شهرين، هل يصلح أن يمكث فيه «داعية» خمس سنوات فلا يقضيه؟! وهل هذا يصلح أن يسمى إلا تباطؤًا؟ بل هو موات وأى موات!! وأى دعوة ترتجى أن ترتقى على أمثال هذا المسكين المضياع؟! لكن الترف والإخلاد إلى الأرض قضيا على كل حركة نافعة مفيدة للأمة، كان يمكن أن تقضى على يديه وأيدى أمثاله.

قد يكون المثال الذى ذكرته آنفًا مثالاً بالغ الحدة، لكنه موجود فى صفوف الدعاة والصالحين على درجات متفاوتات، والقاصمة المهلكة إذا كثر أمثال أولئك المتباطئين، وازدادت نسبتهم، وعلا صوتهم، وارتفعت مكانتهم، هنا يخاف المرء المتفائل أن يُكبِّر أربعًا على كل أمل يرتجى من وراء جهود أولئك ومحاولاتهم الإصلاحية، هذا إن صح أن يسمى تباطؤهم جهدًا فى باب الإصلاح وعملاً فى قضايا الدعوة.

ومن طلب أمثلة أخرى فأقول له: إن الأمثلة أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وكل ما ينبغى لمثل هذا الطالب هو أن يتلفت حوله ليجد الأمر على ما ذكرت ووفق ما بينت، فهناك تباطؤ عام، مشهود ملاحظ، ومن أنكر هذا أو خالفه فكأنما ينكر رؤية الشمس فى رائعة النهار، أو القمر ليلة التمام، ليس دونه سحاب، والله المستعان.

والناظر فى الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح يجد الأمر على خلاف هذا، فالله تعالى قال: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ**﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال ليحيى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾ [مريم: ١٢].

ولما تباطأ يحيى عليه السلام شيئًا فى إيصال الدعوة لبنى إسرائيل، ولم يكن ذلك التباطؤ عن تقصير، فحاشاه عليه الصلاة والسلام، لكن كان لمصلحة شرعية، لما تباطأ شيئًا ما نصحه عيسى عليه السلام، واسمع إلى النبى الأعظم ﷺ يصف ذلك بقوله الشريف: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال**

عيسى: إن الله يأمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب، فجمع الناس فى بيت المقدس، فامتلأ المسجد...»(١).

وهذا النبى الأعظم ﷺ يقول: «بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا: هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا(٢)، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال؛ فشر غائب ينتظر، أو الساعة؛ فالساعة أدهى وأمر»(٣).

وقال ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(٤).

ولله در عمر رضى الله عنه حيث قال: «القوة فى ألا تؤخر عمل اليوم لغد»(٥).

فكيف لو رأى زماننا، ورأى تأخير عمل اليوم إلى سنة أو أكثر؟!

الأثر الرابع: الدعة والكسل:

إن من أعظم ما يجره الترف على صاحبه هو أن يعوده الدعة والكسل والإخلاد إلى الأرض، وهذا مرض عضال وداء خطير، يقعد بصاحبه عن

---

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: باب ما جاء مثل الصيام والصلاة والصدقة، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) جالبًا للخرف.

(٣) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: كتاب الزهد، باب ما جاء فى المبادرة بالعمل، وهو حسن.

(٤) حسَّنَ الحافظ العراقى إسناد الحديث، وعزاه لابن أبى الدنيا. انظر: «آفات على الطريق»: ٢/ ١٨١.

(٥) «آفات على الطريق»: ٢/ ١٨١، نقلاً عن «أخبار عمر»: ص ٢٨١.

طلب المعالى، ويصعب عليه أموره كلها، ويجعله أقرب إلى المُقعد منه إلى الإنسان النشيط العامل، ولقد كان سلفنا -رضى الله عنهم- على غاية من النشاط والحيوية؛ وذلك لبعدهم عن الترف ومقدماته ومسبباته، فهذا جابر من عبد الله -رضى الله عنه-(١) يقول: بلغنى عن رجل من أصحاب النبى ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيرًا، ثم شددت رحلى، فسرت إليه شهرًا حتى قدمت الشام، فإذا هو عبد الله بن أُنيس(٢)، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله، قلت: نعم، فخرج عبد الله ابن أنيس فاعتنقنى، فقلت: حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الله الناس يوم القيامة عراة غُرْلاً(٣) بُهمًا** -فقلنا: ما بُهمًا؟ قال: «**ليس معهم شىء**» -**فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد ومن قَرُب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة**»، قلنا: كيف هو؟ وإنما نأتى الله تعالى عراة غُرْلاً بهمًا؟! قال: «**بالحسنات والسيئات**»(٤).

---

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى، ثم السلمى، ابن صحابى، غزا تسع عشرة غزوة، ومات بالمدينة بعد سنة سبعين وهو ابن أربع وتسعين رضى الله عنه. انظر: «التقريب»: ص ١٣٦.

(٢) عبد الله بن أُنيس: الجهنى، أبو يحيى المدنى، حليف الأنصار، صحابى، شهد العقبة وأحدًا، مات بالشام فى خلافة معاوية رضى الله عنه سنة ٥٤هـ. انظر: المصدر السابق: ص ٢٩٦.

(٣) غير مختونين، تعود إلى من خُتن منهم قلفته.

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ١٧٣، وقال: صحيح بمجموع الطرق، أخرجه فى المسند، والبخارى فى الأدب المفرد، باب المعانقة؛ وذكره فى صحيحه بصيغة الجزم فى كتاب العلم، باب الخروج فى طلب العلم، والحاكم فى المستدرك، ووافقه الذهبى.

الله أكبر! انظروا كيف سار جابر رضى الله عنه شهرًا ليأخذ حديثًا واحدًا فقط، وقارنوا حاله بما نحن عليه اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يكن جابر منفردًا بهذا، بل كان أبو أيوب رضى الله عنه[١] قد صنع صنيعه، فقد خرج إلى عقبة بن عامر رضى الله عنه[٢] وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مُخَلَّد الأنصارى[٣]؛ وهو أمير مصر، فأُخبر به، فعجل فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟! قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرى وغير عقبة، فابعث من يدلنى على منزله، قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأُخبر عقبة به، فعجل فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟! فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد معه غيرى وغيرك فى ستر المؤمن، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ستر مؤمنًا فى الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة**»، فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعًا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر!![٤].

---

(١) أبو أيوب: خالد بن زيد بن كليب الأنصارى، أبو أيوب، من كبار الصحابة، شهد بدرًا ونزل النبى ﷺ حين قدم المدينة عليه، مات غازيًا بالروم سنة خمسين رضى الله عنه. انظر: «التقريب»: ص ١٨٨.

(٢) عقبة بن عامر: الجهنى، صحابى مشهور، ولى إمرة مصر لمعاوية -رضى الله عنهما- ثلاث سنين، وكان فقيهًا فاضلاً، مات قرب الستين. انظر: المصدر السابق: ص ٣٩٥.

(٣) مسلمة بن مخلد الأنصارى: الزرقى، صحابى صغير، سكن مصر ووليها مرة، مات سنة ٦٢هـ رضى الله عنه. انظر: المصدر السابق: ص ٥٣٢.

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ١٧٤، وقال: الحديث حسن بمجموع الطرق؛ رواه أحمد والحميدى.

الله أكبر! ما أعظم همم أولئك الأطهـار؟! وما أبعدهم عن الترف والكسل والدعة؟!

هذا؛ والعجـيب أنه لم يبق بمصر لينظر إلى ما فـيها من جـمال وآثار، بل سارع إلى العودة إلى المدينة، سبحان الله العظيم!

وهذا سعيد بن المسيب[١] -رحمه الله تعالى- يقول: «إن كنت لأسير الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد»[٢].

وهذا الإمام إبراهـيم الحربى[٣] يقول عنه ثعلب[٤]: «مـا فقـدت إبراهيم الحربى من مجلس لغة ولا نحو من خمسين سنة»[٥].

وأختم سـير الأطهـار فى البعـد عن الكسل والدعة بهـذا الخبـر عن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى[٦] رحمه الله تعـالى؛ الذى «كان يصلى النوافل من

---

(١) سعيـد بن المسيب بن حزن القرشى المخزومى، أحـد العلماء الأثبات، الفقهـاء الكبار، قال ابن المدينى: لا أعلم فى التابعين أوسع علمًا منه؛ مات بعد سنة تسعين، وقد جاز الثمانين، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٢٤١.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ١٧٤، «المعرفـة والتاريخ»: (١/ ٤٦٨، ٤٦٩)، «الرحلة فى طلب الحديث» للبغدادى: ١٢٧.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) ثعلب: العلامة المحدث، إمـام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بـن يزيد، الشيبانى بالولاء، البغدادى، صاحب التصانيف، ثقة، حجة، ديِّن، صالح، مشهور بالحفظ، توفى سنة ٢١٩هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٥-٧.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٠٩٤.

(٦) زكريا الأنصارى: بن محمد الأنصارى المصرى، عمر طويلاً، ورزق تلامذة نجباء، وبارك الله فى مصنفاته، توفى بالقاهرة عن مائة سنة، وذلك سنة ٩٢٦هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الكواكب السائرة»: (١/ ١٦٩-٢٠٧).

قيام مع كبر سنه وبلوغه مائة سنة أو أكثر، وهو يميل يمينًا وشمالاً، لا يتمالك أن يقف بغير ميل؛ للكبر والمرض، فقيل له فى ذلك، فقال: يا ولدى، النفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبنى وأختم عمرى بذلك»[١].

وقد ذمت العرب قديمًا الكسل والدعة على خلاف حالهم اليوم، فقالوا: «ما لزم أحدٌ الدعة إلا ذل، وحب الهُوينا يكسب الذل»[٢].

وقالوا أيضًا: «إن الراحة حيث تعب الكرام أودع، لكنها أوضع، والقعود حيث قام الكرام أسهل، لكنه أسفل»[٣].

وقالوا: «وإياك وإيثار الخفض[٤] والدعة، والميل إلى الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال مذمومة، وعقباها كريهة وخيمة... ودع الشجر والكسل وحب الحاجة، فإنها من أخلاق البهائم»[٥].

لذلك كله ذم الشارع الكسل، وعده نقصًا، ففى كتاب الله تعالى المجيد جاء قوله فى معرض الذم للمنافقين: ﴿ **وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ** ﴾ [التوبة: ٥٤].

وكان ﷺ يتعوذ من الكسل، فعن أنس رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل**»[٦].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٠٢.
(٢) «محاضرات الأدباء»: ص ٤٤٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) خفض العيش: نعومته.
(٥) «البصائر والذخائر»: لأبى حيان التوحيدى: ٢/٨٠٧.
(٦) صحيح الإمام البخارى: كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال.

الأثر الخامس: ضعف الجسد وخَوَر العزيمة:

وهذه قضية خطيرة؛ إذ لا يعود المترف يحتمل المشاق، ولا يصبر على اللأواء، ويصبح أشبه بالنساء منه بالرجال، فخطرات النسيم تجرح خديه، ولمس الحرير يدمى بنانه، «والمترف مريض بالنعمة، لا يستطع أن يقابل الحياة بما هى عليه من شدة ورخاء، وسعة وقسوة، ومنافع وشرور، وظل وحرور، والمال وحده لا يدفع ضررًا ولا يجلب سعادة، والحياة صبر، لم يتعوده المترف، والحياة تغلب على المصاعب والمترف لا يعرفها، فأقل شىء يصيبه يعتبره صدمة، ورجل الحياة لابد أن يلابس الحياة كما هى فى جميع أوضاعها، وبجميع تقلباتها»(١).

وقال الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله تعالى-: «فالترف يذهب النخوة، ويضعف قوة النفس، ويجعل الإنسان ضعيفًا مستكينًا عبدًا لشهواته، ما أذلَّ الأمم شىء كالترف، وما ذهب بقوة الأمم شىء كالترف»(٢).

هذا، وقد قال: «والتتار عندما جاؤوا منحدرين من أعلى الصين كالصخرة، لا تلوى على شىء إلا أخذته، كانوا خشنين، جفاة غلاظًا، والمسلمون فى ذلك الوقت كانوا يعيشون بين الجوارى، بل كانوا قد تناولوا المحرمات، واستباحوا الخمور(٣)، فانساب التتار فى أرض المسلمين، حتى إن ابن كثير يقول: إنهم ما كانوا فى فتحهم إلا على مقدار سيرهم، فبمقدار سرعة السير كانت سرعة الفتح؛ إذ لم يعوقوا؛ لأن المسلمين كانوا قد أصابهم الترف، حتى إذا أحس

---

(١) «خلق ودين»: ص ١٥٢.

(٢) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣٨٢هـ، ص ٣٨٨.

(٣) أى: كثير منهم فعل ذلك، وليسوا كلهم بالطبع، ومعنى استباحوا الخمور؛ أى: جعلوها كالمباحة فى تناولها، والإكثار من شربها لا على معنى أنهم رأوها مباحة حلالاً، لا ومعاذ الله.

المسلمون بالويلات واخشوشنوا، وباعدوا الترف، وكان التتار قد ذاقوا الترف، عندئذ التقت بهم جيوش الشام ومصر فأعملت السيوف فى أقفيتهم»(١).

وقد كانت عزيمة سلفنا ماضية، وأجسادهم قوية فى طلب العلم ورفعة الأمة، بل كانوا يغالبون أنفسهم إن وقع لجسدهم شيء من الضعف أو العلة، ومن أعجب ما قرأته فى حياتى فى هذا الأمر -أمر مغالبة الضعف أو العلة الناشئة- ما حدث للإمام يعقوب بن سفيان الفَسَوى(٢) رحمه الله تعالى؛ فاستمع إليه حيث يقول:

«أقمت فى الرحلة ثلاثين سنة.. فدخلت إلى بعض المدن، فصادفت بها شيخًا احتجت إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وقَلَّت نفقتى، وبعدت عن بلدى، فكنت أدمن الكتابة ليلاً وأقرأ نهارًا، فلما كان ذات ليلة كنت جالسًا أنسخ وقد تصرَّم الليل(٣)، فنزل الماء فى عينى، فلم أبصر السراج ولا البيت، فبكيت على انقطاعى، وعلى ما يفوتنى من العلم، فاشتد بكائى حتى اتكأت على جنبى فنمت، فرأيت النبى ﷺ فى النوم فنادانى: يا يعقوب بن سفيان، لم أنت بكيت؟ فقلت: يا رسول الله ﷺ، ذهب بصرى فتحسرت على ما فاتنى من كَتْب سنتك، وعلى الانقطاع عن بلدى، فقال: أُدْنُ منى، فدنوت منه، فأمرَّ يده على عينىَّ كأنه يقرأ عليهما، قال: ثم استيقظت فأبصرت، فأخذت نُسخى وقعدت فى السراج أكتب!!»(٤).

(١) المصدر السابق، ولم ينتصر المسلمون عليهم لأن التتار ذاقوا الترف، لا، إنما انتصروا عليهم بعودتهم إلى دينهم وإسلامهم.

(٢) يعقوب بن سفيان الفسوى: الفارسى، أبو سيف الفسوى، ثقة، حافظ، مات سنة ٢٧٧هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ص ٦٠٨.

(٣) انقضى ومضى.

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ٩٣، نقلاً عن «سير أعلام النبلاء»: (١٣/ ١٨١، ١٨٢).

الله أكبر! هذا أعجب وأغرب خبر قرأته فـي حياتي، فهذا رجل قد أصابته علة مفاجئة؛ وهي العمى، وحسبك بها، فلما عوفي منها لم يرجع سريعًا إلى بلده، ولم يخـفف من القراءة والكتابة، بـل انقلب يكتب كمـا كان، وتغلب على ما يمكن أن ينشأ من ضعف في عزيمته إثر العمى الذي نزل به.

الله أكبر! بهـذا انتصر المسلمون الأوائل وسادوا، وبتـرك هذه العزيمة خُذلنا نحن وانهزمنا وتخلفنا.

ويقارب هذا الخبر الخبـر التالي، الذي قصَّـه أبو جندل هارون بن موسى القيسي[1] الأديب النحوي القرطبي، قال:

«كنا نختلف إلى أبي علي القـالي البغدادي[2] -رحمه الله- وقت إملائه النوادر بجامع الزهراء في قرطبة، ونحن في فـصل الربيع، فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق، إذ أخذتني سـحابة، فما وصلت إلى مجلســه -رحمه الله تعـالى- إلا وقد ابتلت ثيـابي كلهـا، وحوالَيّ أبي عليٍّ أعـلامُ أهل قرطبــة، فأمرني بالدنو منه، وقال لي: مهلاً يا أبا نصر، لا تأسف على ما عرض لك، فهذا شيء يضمـحل عنك بسرعة بثياب غيرها تبدلهـا، قد عرض لي ما أبقى

(١) هارون بن موسى بن صالح الـقيسي القرطبي المجريطي الأصل، أبو نصـر، أديب من العلماء، من أهل قرطبة، كان ممن لازم أبا علي القـالي، وكان صالحًا منقبضًا، عاقلاً مَـهيبًا، توفي سنة ٤٠١هـ، رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٨/ ٦٣.

(٢) أبو علي القالي: إسـماعيل بن القاسم بن عـيذون، ولد في منازجرد على الفـرات الشرقي سنة ٢٨٨، ونشأ بهـا، ثم رحل إلى العراق فتـعلم في بغداد، ومكث فيـها ٢٥ سنة، ثم رحل إلى المغرب سنة ٣٢٨هـ، فدخل قرطبة، له عدة مصنفات نافعة، وتوفي بقرطبة سنة ٣٥٦هـ. انظر: «الأعلام»: (١/ ٣٢١، ٣٢٢).

بجسمي ندوبًا تدخل معي القبر، ثم قال: أنا كنت أختلف إلى ابن مجاهد[١] -رحمه الله تعالى- فأدلجت إليه؛ أي: ذهبت إليه من آخر الليل قبل الفجر؛ لأتقرب منه[٢] -فلما انتهيت إلى الدرب[٣] الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ألفيته[٤] مغلقًا، وعسر عليَّ فتحه[٥]، فقلت: سبحان الله! أبكِّر هذا البكور، وأُغلب على القرب منه؟! فنظرت إلى سرب[٦] حفر تحت الأرض بجنب الدار، فاقتحمته، فلما توسطته ضاق بي، ولم أقدر على الخروج ولا على النهوض، فاقتحمته أشد اقتحام حتى نفذتُ بعد أن تخرقت ثيابي، وأثَّر السرب في لحمي حتى انكشف العظم!! ومنَّ الله عليَّ بالخروج، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال، فأين أنت مما عرض لي؟ وأنشدنا:

دببتُ للمجد والساعون قد بلغوا ... جهدَ النفوس وألقوا دونه الأُزُرا[٧]

وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم ... وعانق المجدَ من أوفى ومَن صبرا

لا تحسبِ المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تَلْعَقَ الصَبِرا[٨][٩]

---

(١) ابن مجاهد: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد، ولد سنة ٢٤٥هـ، كان كبير العلماء بالقراءات في عصره. من أهل بغداد، وكان حسن الأدب، رقيق الخلق، فطنًا جوادًا، له عدة كتب، توفي سنة ٣٢٤هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ١/ ٢٦١.

(٢) أي: ليكون في الصف الأول في مجلسه.

(٣) الطريق.

(٤) وجدته.

(٥) فتح بابه.

(٦) نفق.

(٧) جمع إزار.

(٨) المُرّ.

(٩) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٦١، نقلاً عن «إنباه الرواة»: ٣/ ٣٦١.

- وهذا الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الباقى البَزَّاز[١]، يقص قصة أسره، وكيف لم يمنعه من تعلم العلم، ولم يؤثر فى عزيمته ولا فى همته، فيقول:

«أسرتنى الروم، وبقيت فى الأسر سنة ونصفًا، وكان خمسة أشهر الغُلُّ فى عنقى، والسلاسل على يدى ورجلى، وكانوا يقولون لى: قل المسيح ابن الله حتى نفعل ونصنع فى حقك، فامتنعت وما قلت، ووقت أن حبست كان ثَمَّ[٢] معلم يعلم الصبيان الخط بالرومية، فتعلمت فى الحبس الخط الرومىَّ!!»[٣].

- وهذا الإمام إبراهيم الحربى -رحمه الله تعالى- يقول مبينًا قوة عزيمته، وإخفاءه الضعف الذى طرأ على جسده، والعور الذى أصابه:

«ولا شكوت إلى أهلى وأقاربى حمى أجدها، لا يغم الرجل نفسه وعياله، ولى عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت به أحدًا»[٤].

الله أكبر! إن هذا لشىء عجيب.

- ومن مظاهر ضعف الجسد وخَوَر العزيمة كثرة التأفف من شدة الحر، والاستسلام له، وعدم القدرة على العمل فى الأجواء المناخية الصعبة، والمكث فى الغرف المكيفة، وكراهية الخروج منها، وهذا كله يورث العاملين الضعف والخور، وعدم قضاء الأعمال المهمة، وإضاعة الأوقات، ولم يكن الصالحون

---

(١) أبو بكر محمد بن عبد الباقى البزاز: الشيخ الإمام، العالم المتفنن، الفَرَضى، مسند العصر؛ محمد بن عبد الباقى الخزرجى السلمى الأنصارى البغدادى، ولد سنة ٤٤٢هـ، وتوفى سنة ٥٣٥هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٢٠/ ٢٣-٢٨).

(٢) هناك.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ٤١٣، نقلاً عن «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب: ١/ ١٩٣.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٠٩٥.

كذلك، فهذا الإمام محمد بن يحيى الذهلى[١] يحدث عنه ابنه فيقول: «دخلت على أبى فى الصيف الصائف وقت القائلة وهو فى بيت كتبه وبين يديه السِّراج[٢]، وهو يصنف، فقلت: يا أبت، هذا وقت الصلاة ودخان هذا السراج بالنهار، فلو نفَّست عن نفسك.

قال: يا بنى، تقول هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين»[٣].

فهذا العالم فى شدة الصيف قد جلس فى غرفة مكتبه يكتب، وقد تضاعف عليه الحر واشتد بدخان السراج، فما أعظم أولئك؟! وما أقلَّ اكتراثهم بالحر؟!

- وهذا الحافظ الحُميدىُّ محمد بن فتوح الأندلسى ثم البغدادى[٤] -رحمه الله تعالى- يحكى عنه أحد أصحابه فيقول:

«كان الحميدى من اجتهاده ينسخ بالليل من الحر، فكان يجلس فى إجَّانة[٥] ماء يتبرد به»[٦].

الأثر السادس: تعاطى بعض المعاصى والإصرار عليها:

إن من آثار الترف الواضحة تعاطى بعض المعاصى والإصرار عليها، وربما جرت متعاطيها إلى شىء من الكبائر والعياذ بالله تعالى؛ وذلك لأن المترف

---

(١) محمد بن يحيى بن عبد الله الذهلى النيسابورى، ثقة، حافظ جليل، مات -رحمه الله تعالى- سنة ٢٥٨هـ وله ست وثمانون سنة. انظر: «التقريب»: ص ٥١٢.

(٢) وذلك لأن المكتبة مظلمة.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ٢٥٩، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ٣/ ٤١٩، و«سير أعلام النبلاء»: (١٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٤) الحافظ الحميدى: الإمام القدوة، الحافظ شيخ المحدثين، ولد قبل سنة ٤٢٠هـ، وتوفى سنة ٤٨٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ١٢٠- ١٢٧).

(٥) إناء واسع.

(٦) «صلاح الأمة»: ١/ ٤١٢.

غالبًا كثير السفر والانتقال، وقد يجره هذا إلى ما لا يحمد عقباه، ومن أوضح الأمثلة على ما ذكرته من تعاطى بعض الصغائر والإصرار عليها هو تكرار النظر المحرم والتلذذ به، وطلبه، والاسترواح إليه، وهذا الأمر إن تمكن من شخص ما فهو على خطر كبير، والخوف أن يجره هذا الأمر إلى شىء من الكبائر والعياذ بالله تعالى.

وبعض الناس فى سفره قد يطلب من يغمز جسده[1]، وهذا لأجل الترف لا لمرض أو حاجة، وهذا الغامز قد يتعدى إلى مواضع لا يحل له لمسها، بل إن بعضهم قد رُئى فى بلد أوروبى فى محل لتزيين الجسد والعناية به، وقد تناولت قدمه إحدى الفتيات لتقص منها الأظافر وتُعنى بالبشرة!! وما انغمس هذا المسكين فيما انغمس فيه -وهو محسوب من الصالحين- إلا بسبب الترف الذى جره لمثل هذا الذى لا يحل له، ولا يليق بأمثاله.

وبعض الصالحين -أو من يُحسب من الصالحين- تجده بسبب انغماسه فى وظيفة يشاركه فيها النساء[2] يترخص فى الحديث معهن، والخلوة بهن، والنظر إليهن، بل الخروج -إذا سافر- معهن للأسواق وأماكن التنزه، ولا تجده يتحرج من هذا، وأجزم أن الذى أذهب الحرج من قلبه هو عز الوظيفة، ورفعة الجاه، وكثرة المال، وحب الدنيا، والميل إلى شهواتها، ومخالطة عصاة أهلها مخالطة أنست صاحبنا هذا كثيرًا من الحدود الشرعية، وقد يسأل سائل: وهل يفعل مثل هذا الصالحون؟! وأقول: نعم، إذا انغمسوا فى الترف.

---

(١) يصنع له ما يسمى بالمساج.

(٢) وذلك نحو الأطباء والطيارين.

ومن أسوأ أنواع الوقوع فى المعاصى:

- الترخص والتساهل فى أمر الصغائر:

وهذا المرض قد لا يُفطن إليه؛ وهو يفعل فعله فى النفوس، فتخلد إلى الأرض، وتثقل، وتدع العمل والدعوة، بل قد تدع الالتزام بدين الإسلام، والعياذ بالله.

أعرف رجلاً كان صاحب عبادة ظاهرة ودعوى عريضة، فعرض له شىء من التساهل والترخص، فأخذ به، واستمرأه وأكثر منه، حتى رأيته بعد ذلك عبرة للمعتبر.

وأعرف آخر مثله؛ كان يملأ الدنيا ضجيجًا، ويكثر من ادعاء العلم والعمل، حتى أخذ بالرخص وترك العزائم بالكلية، فصار فى عداد العوام المقصِّرين.

وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيعُ القوم[١]، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، حتى جمعوا سوادًا[٢]، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»[٣].

---

(١) طعامهم.

(٢) مقدارًا صالحًا.

(٣) قال الإمام الهيثمى: رواه أحمد، والطبرانى فى الأوسط؛ ورجاله رجال الصحيح غير عمران بن داوَر القطان، وقد وُثِّق. انظر: «مجمع الزوائد»: ١٠/ ١٩٢.

وقال سليمان التيمي: «لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله»[١].

ودخل إسماعيل القاضي على الخليفة العباسي المعتضد بالله، فدفع إليه كتابًا فنظر فيه، فإذا قد جُمع له فيه الرخص من زلل العلماء، فقال: مصنف هذا زنديق!.

قال: ألم تصح هذا الأحاديث؟

قال: بلى، ولكن من أباح المسكر[٢] لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراق الكتاب[٣].

الأثر السابع: حب الحياة وكراهية الموت:

لقد عُرف المسلمون الأوائل -رضى الله عنهم- أنهم يحرصون على الموت فى سبيل الله تعالى حرص أعدائهم على الحياة، فكان هذا الحرص دافعًا لهم إلى تسطير أعظم صفحات التاريخ نصاعة وعظمة وجلالاً، وصار لهم بهذا المكانة العالية بين الأمم، وأنشأوا لهم هيبة فى قلوب أعدائهم مكنتهم بها من رقابهم، ودفعت عنهم شرور المفاسد طويلاً، فلما أخلد كثير من المسلمين إلى الأرض وارتضوا الحياة الدنيا وأحبوها غلب عليهم كراهية الموت وكراهية ترك ما هم فيه من متع وترف، وهذا هو عين ما نشاهده اليوم عند أكثر المسلمين،

(١) «نزهة الفضلاء»: ص ١/ ٥٢٩.

(٢) المقصود بالمسكر هنا النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المجمع على أنها حرام.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٩٩١.

لكن دعني من الحديث عن عامة المسلمين، ولنتحدث عن خاصتهم، فإن أخشى ما أخشاه على خاصة المسلمين أن يكونوا -بسبب ترفهم- قد تمسكوا من الدنيا بأسباب، وارتضوا ما فيها من المتع والشهوات، وأوغلوا فيها، لكن ليس برفق، وأحبوها حُبَّ من لا يستطيع فراقها، ويكره الانتقال عنها.

وتكثر اليوم -بسبب ما يجرى فى بعض ديار المسلمين- دعاوى الجهاد فى سبيل الله تعالى، لكن السؤال الذى ينبغى أن يسأله كل منا نفسه: هل أنا حقًا مستعد للجهاد؟! وهل إذا استنفرت لجهاد نفرت؟! وهل أعددت نفسى يومًا لحومة الوغى ولقاء الأعداء، وفراق الأهل والأصحاب والمال والشهوات؟!

إن أصحاب رسول الله ﷺ قد ضربوا أروع المثل فى الجهاد، لكن قصة كعب بن مالك رضى الله عنه تملأ رأسى دويًا إن قرأتها؛ كم منَّا مَنْ سيصنع ما صنع كعب رضى الله عنه من تباطؤ عن الجهاد حتى فاته فى تبوك، هذا وهو من خيار المسلمين ومن أهل السبق فيهم؛ فماذا نقول نحن؟ وماذا سنفعل إذا نادى منادى الجهاد؟!

هذا، وقد كان مجتمع كعب مجتمعًا جهاديًا محضًا؛ فماذا نقول عن مجتمعاتنا المتخمة بصور الترف اليوم؟ وكان كل ما يحيط بكعب رضى الله عنه يدعوه إلى الجهاد والخروج، فماذا نقول عن اليوم وكل ما حولنا يدعونا إلى القعود والإخلاد إلى الأرض؟! اللهم غفرًا، فإنى أظن أننا ملأنا الأرض دعاوى لم توضع على محك ولم يختبر صدقها.

وبعض الدعاة والصالحين، بل كثير منهم، لم يتأهب بعد لقضية الجود بالنفس، والسماح بها عن طيب قلب، إن دعا لذلك داع، والتأهب هذا على

قسمين: بدنى ونفسى، أما البدنى فمعلوم، وأما النفسى فأريد منه حديث النفس بالجهاد ورغبتها فيه وشوقها إليه، فمن منا قد أعد العدة، وتأهب على نحو ما ذكرت فى بدنه ونفسه؟ هذا وقد قال ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق**»[(١)].

أرأيت إلى قول النبى ﷺ: «**ولم يحدث به نفسه**»، فهذا الذى أعنيه من أمر التأهب النفسى، وهو على غاية من الأهمية، وهو المحرك الأكبر لقضية حب الموت والتضحية فى سبيل الله، وهناك نفر كثير من الدعاة والصالحين إما أن يخرج للجهاد أو أن يعيش عيشة المترفين، وكأنه لا حل وسطًا هنالك، والذى ينبغى صنيعه هو إعداد النفس للجهاد والتهوين من شأن الموت، وعدم التعلق بالحياة، فإن نادى منادى الجهاد كنا أول الملبين، وإن حجب الله عنا الجهاد لحكمة كنا على الأقل متأهبين، قد أعددنا للأمر عدته، فلم نخلد إلى الأرض، ولم يغلبنا الترف.

هذا خالد بن الوليد -رضى الله عنه- يقول لقائد الروم: «أتيناكم بقوم يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة»، وهذا سببٌ من أسباب انتصار المسلمين الأوائل.

والنبى الأعظم ﷺ قد حدث بحديث بيَّن فيه ما آل إليه حالنا من التعلق بالدنيا وكراهية الموت، فقال ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: «**أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب**

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب الإمارة: باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو.

عدوكم، ويجعل فى قلوبكم الوهن»، قلنا: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»(١).

الأثر الثامن: ضعف فى الجانب الإيمانى:

والترف قد يؤدى إلى جملة من أمراض القلوب والجوارح، فإذا اجتمعت على المرء ذهبت بقوته، وأضعفت إيمانه، وربما أهلكته والعياذ بالله، فأصبح كآحاد الناس وعوامهم، ومثال ما يصيب القلب من أمراض بسبب الترف:

١- ضعف الخشوع أو انعدامه.

٢- قلة الورع أو انعدامه.

٣- ضعف التلذذ بالعبادات والطاعات واستثقالها.

٤- قسوة القلب، وقلة تأثره بما يلقى عليه من المواعظ والتذكير.

٥- ضعف أو انعدام عبادة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٦- حسد الآخرين على ما وهبهم الله من نعم مادية ومعنوية.

إلى آخر ما هناك من أمراض قلبية يطول الكتاب جدًا بتفصيلها، والوقوف على دقائقها، لكن حسبى التنبيه عليها؛ إذ كل منها يصلح أن يُفرد برسالة أو بكتاب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن ثوبان رضى الله عنه، وأخرجه أبو داود فى سننه: كتاب الملاحم: باب فى تداعى الأمم على الإسلام، واللفظ لأحمد، والحديث صحيح. انظر: صحيح سنن أبى داود: ٣/ ٨١٠ للشيخ الألبانى رحمه الله تعالى، والتداعى: الاجتماع ودعاء البعض بعضًا، وهذا حاصل اليوم، والأكلة: جمع آكل، والغثاء: ما يجعله السيل من زبد ووسخ، شبههم به لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم.

ومثال القسم الآخر؛ وهو الأمراض التى تصيب الجوارح بسبب الترف:

١- الكسل والدعة والفتور.

٢- عدم الحرص على الانتظار فى أداء الصلوات فى جماعة، خاصة أوقات البرد الشديد أو الحر الشديد.

٣- عدم استطاعة تأدية صلاة الفجر.

٤- قلة الاهتمام بصلاة الليل عامة، والوتر خاصة.

٥- قلة أو ندرة ختم القرآن.

٦- قلة الحرص على أذكار الصباح والمساء.

٧- قلة صيام التطوع.

٨- عدم المبادرة إلى فعل الخيرات ذوات النفع المتعدى؛ مثل الدعوة إلى الله تعالى، وبذل النصح، وإغاثة الملهوف، والوقوف على مشكلات الناس. . . إلخ.

وهى قائمة طويلة، تشمل عبادات مضيَّعة، وحقوقًا مُفَرَّطًا فيها، وإخلادًا إلى الأرض، وأكتفى بما أوردته مثالاً لما أغفلته، وليس المقام مقام الحديث عنها، إنما هى لوازم للترف غالبًا، أسأل الله أن يحمينا مما هنالك، ويقينا شر تلك المهالك.

الأثر التاسع: ضعف فى الجانب التربوى:

قد يورث الترف ألوانًا من الضعف فى التربية، والانغماس فى أمور تنافى الجدية والانضباط، وقد بينت بعض ذلك فى صلب الرسالة، لكن أُذكِّر ببعض العوارض الخطيرة، والأمراض الوبيلة، فمن ذلك:

١- عدم الاكتراث بالدعوة إلى الله تعالى، وبذل المجهود فيها، وضعف المداومة عليها.

٢- قلة الاهتمام بأحوال المسلمين، والوقوف على أخبارهم ومشكلاتهم.

٣- ضعف الارتباط بتكاليف العمل الدعوى.

٤- ضعف القناعة بالسمت التربوى، وإبداء الضيق منه بدعوى التشدد والغلو.

٥- قلة الالتفات إلى السنن النبوية، وضعف الأخذ بها وتطبيقها على النفس والأهل.

٦- ضعف التمسك بالسنة فى الهدى الظاهر.

٧- كثرة النقد غير المبرر غالبًا.

٨- إثارة البلبلة فى مجالات الأنشطة الإسلامية المختلفة؛ بسبب عدم قدرته على مجاراتها.

٩- الجرى وراء رخص العلماء وزلل الأقوال والأعمال.

١٠- التساهل فى النظر إلى العورات فى وسائل الإعلام المختلفة من مقروء ومرئى.

وهذه أمثلة فقط، والقائمة طويلة يطول الكتاب بذكرها وتفصيلها، على أنه ليس هذا مكان ذلك، وإنما سقت أمثلة تستغنى بذكرها عن التطويل والتفصيل فيها، وذكرها مجرد من التفصيل والتدليل قد يفيد فى تذكير إخوانى الدعاة والصالحين وطلبة العلم، وإيقاظ من غفل منهم أو استكان أو استنام؛ إذ كثرة الكلام ينسى بعضه بعضًا، والله الموفق.

المبحث الخامس

أنواع من الترف لها تعلق بموضوع الكتاب

قد ذكرت قبل هذا مباحث من الترف المتعلق بحاجات البدن وأحوال الإنسان المعيشية، لكن هناك أنواع من الترف تتعلق بالعقل الإنساني؛ وهي مؤثرة تأثيرًا كبيرًا فى حياة متعاطيها وملابسيها، بل قد تفوق فى بعض الأحوال -فى تأثيرها- كل ما ذكرت سابقًا من مؤثرات الترف.

وهذه الأنواع هى: الترف الفكرى، والثقافى، والعلمى، ولعل سائلاً أن يسأل: ما علاقة الترف الذى يدور معناه على التنعم والتوسع فى ملاذ الدنيا مع ما ذكرت من الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية؟

وأقول: إن هناك تعلقًا ما؛ حيث إنه من معانى الترف التوسع فى ملاذ الدنيا، وليست الملاذ محصورة فى شهوات البطن والفرج فقط، بل تتعدى ذلك إلى الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية، بل إن من الناس ناسًا يتنعمون ويتلذذون بطلب العلم والفكر والثقافة أكثر بكثير من تلذذهم بما ذكرته آنفًا، وبهذا الاعتبار أوردت هذا المبحث هنا، وأظن أنه فى غاية الأهمية؛ وذلك لأن من يخوض فى شهواته وملاذه الحسية من الدعاة والصالحين وطلبة العلم قد يدرك أنه مرتكبٌ أمرًا يعود عليه بالضرر، لكن الخائض فى الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية خوضًا مترفًا قد لا يتنبه لخطورة ما هو عليه، ولا يدرك أنه أساء من حيث أراد الإحسان، وأنه من زمرة من يظنون أنهم يحسنون صنعًا، لكنهم فى الحقيقة قد ضلوا الطريق وأخطأوا السبيل؛ لذلك رأيت أن أنبه على

المزالق فى هذا الصنع بإيجاز، وألفت الأنظار لآثاره السيئة على الدعاة والعمل الإسلامى؛ حتى نتجنب كل ذلك، ولا نقع فى تلك المهالك، وننتقل من إضاعة الأوقات إلى صيانة الزمان، ونبتعد عن اللغو والهذيان، وتصبح حياتنا مغمورة بالنافع من القول والعمل، والله الموفق.

أولاً: الترف الفكرى:

المقصود بالترف الفكرى: هو الخوض فى مباحث وقضايا تتعلق بالفكر، ليس لها كبير تعلق بحياة الناس؛ خاصهم وعامهم، ولا تأثير لها فى مجريات الأمور، ولا وزن لها فى الآخرة، والخوض فيها مشغلة للناس أيما مشغلة، وتضييع لأوقاتهم، ومن الصور على هذه القضايا:

- تقويم الناس والمفاضلة بينهم:

وهذا ليس للعموم، والتعلق به مشغلة وإضاعة وقت، ولعله يجرّ إلى وزر والعياذ بالله، ويسوق إلى همٍّ، وشرح ذلك أمر يطول وفيه تفصيلات لا مكان لعرضها ها هنا[1]، لكن الخائض فيه بغير حق إنما هو مترف فكرياً، وآت بما لا طائل تحته ولا جدوى وراءه.

- الانشغال بالرد على كل الشبهات:

وهذا أيضًا من الترف الفكرى، فالشبهات على الإسلام ودعوته من قبل أعدائه والمتربصين به كثيرة كثيرة، والتعلق بالرد عليها وتفنيدها كلها تضييع للزمان واستجابة وتنزل لأولئك الجاهلين، والعاقل هو الذى يعرف ما الذى

---

(١) انظر: كتاب «القدوات الكبار بين التحطيم والانبهار» لكاتب هذه السطور، ففيه تفصيل لما أجملته ها هنا.

ينبغي الرد عليه مما شاع ضرره، وكثر على ألسنة العوام نقله، لا أن يتلقف كل شبهة مهما ضعفت وتهافتت، أو مهما كانت معزولة فى زوايا النسيان وركام الإهمال، فيجتذبها ويبرزها ويصورها على أنها مهمة من المهمات التى طرأت والنوازل التى ظهرت، ويعطيها فوق قدرها الضئيل، ويحيطها بهالات من التخويف والتهويل، فالعاقل هو الذى يوفر على الأمة وقتها، ويريحها من كثير من الأخذ والرد، والبلبلة والتوتر والشد، ولا يرد إلا بقدر على مشتهرات الشبهات، مما صار من الضرورة بمكان الرد عليه وتفنيده، وبيان تهافته وضعفه، وغير ذلك يُطوى ولا يُروَى، ويُهمل ولا يُذكر، ويتلف ولا يشهر، والزمان كفيل بذلك، والوقت أعظم من أن يُضيَّع فى مثل تلك المسالك، والله الموفق.

ثانيًا: الترف الثقافى:

والمقصود بالترف الثقافى هو التعلق بقضايا ثقافية ليس لها كبير علاقة بدعوة الدعاة، ولا تأثير لها على حياتهم، والخوض فى مثل هذه القضايا يعد مضيعًا لأوقات الدعاة وشاغلاً لهم عن قضاياهم أو بعضها، ومن الصور على هذه القضايا:

١ - تعلم لغة أجنبية بغير حاجة:

وهذا ترف بالنسبة لمن ليس له اختلاط بقوم يفتقر لمعرفة لغتهم، وليس لتعلم اللغات علاقة بحياته العملية الوظيفية، ولا بدراساته الحالية أو المستقبلية المتوقعة، ولا هو ممن يدرس أحوال الأقوام والشعوب وبيئاتهم وثقافتهم، فدراسة اللغة ممن هذا شأنه أخشى أن تكون ترفًا محضًا؛ حيث إن بعض الدعاة يتحمس فى فورة

ما لمثل هذا الأمر فينفق فيه شهورًا طويلة من عمره، ثم إذا ابتدأ يحسن فهم اللغة ويتعرف إليها انقطع عنها؛ لانشغاله وعدم تعلق حياته بها، فإذا به يضيعها، ويضيع معها الساعات الطويلة التى انشغل فيها باللغة وتعلقاتها.

وبعض الناس يحتج لتعلمك اللغة بما سيفوته إذا أهمل تعلمها من متابعة وسائل الإعلام، خاصة الإنترنت، وأقول: إن تعلم الإنترنت وإحسان استعماله لا يحتاج لتعلم اللغة وإتقانها؛ إنما هو محتاج إلى دورة مركزة عملية فى استخدام الإنترنت، ثم هو ليس بحاجة إلى معرفة اللغة بعد ذلك؛ إذ صفحات الإنترنت بالعربية قد بلغت من الكثرة والتنوع ما لم يعد المطلع عليها بحاجة لمعرفة لغة أجنبية بعد ذلك، وإن احتاج إلى اطلاع على شىء ما بلغة أجنبية استعان عليها بمن يتقنها، أما وسائل الإعلام الأخرى فهناك بدائل كثيرة ثرية، تغنيه عن الاطلاع على المواقع الأجنبية، والوقوف عليها بلغة القوم التى لا يحسنها، ويريد أن يتعلمها والوقت لا يسعفه، وذلك لأن الداعية يحتاج لمعرفة علوم دينه والمهمات من شرعه المطهر، ويحتاج إلى الاطلاع على ثقافات إسلامية وإنسانية؛ ليعرف واقعه، وهو مطالب بأن يعرف عدوه والمؤامرات التى يحيكها، وهو مطالب بإحسان تربية الأولاد وحسن معاشرة الزوجة، والقائمة التى يطالب بتحقيقها الداعية طويلة طويلة؛ فمتى يفرغ لها إن تفرغ لطلب تعلم لغة جديدة واستغرق فى ثقافتها وعلومها؟

٢- التعلق بالإنترنت تعلقًا مبالغًا فيه:

الإنترنت نعمة من نعم الله تعالى على الدعاة فى هذا العصر؛ إذ فتح لهم من الأبواب ما كان مغلقًا فى وجوههم، وسهل لهم الاتصال ببعضهم بعضًا

على وجه رائع، لكن قد تعلق بعض الدعاة بهذه الوسيلة تعلقًا أفضى بهم إلى الانشغال عن قدر ليس بالقليل من واجبـاتهم الدعوية، وارتقاءاتهم الإيمانية، وتطوعاتهم العبادية، ومن الترف الواضح فى هذه القصية أن يظل الأخ الداعية ساعات طويلة يتـنقل من موقع إلى موقع، لا لشىء إلا لتتـبع الغرائب -وما أكثرها فى صفـحات الإنترنت ومواقعه- والسـؤال عن العجائب، وإنزال هذه الغرائب والعجائب وطبعها وتوزيعها، أو إرسالها إلى الأحباب والأصحاب!

وبعض الدعاة يشارك فى إعداد ملفات مطولة، أو ينفرد بإعدادها، وفائدتها محدودة، والذى أُنفق فى إعدادها ساعات ثمينة طويلة، كان ينبغى إنفاقها فى أمور أهم، وقـضايا أكثـر إلحاحًـا مما تعلق به أولئك المتعلقـون، وكان يمكن لصغار طلبة العلم وصغار الدعاة إعداد كـثير مما يعده عدد من كبار الدعاة من ملفات وقضايا.

هذا عـدا ما يمكن أن يجـره الإنترنت على المتـوغلين فيـه من اطلاع على العورات ونظر إلى الحرام، وإيراد أمثلة على ذلك أمر يطول، لكنه واقع وقائم فى الدعاة والصالحين وطلبة العلم بنسب متفاوتة.

خـلاصة القـول: إن الإنتـرنت ذو فائدة عظيـمة لو أحـسن استـخدامـه، واستخرج منه الدرر بأقل مجهود وضرر يعـود على مستخدميه، وهناك بعض الإخوة من الدعاة عـملهم فى الإنترنت جهاد، ومـحاربة للمواقع الصهـيونية والمتصهينة، فؤلاء ليس معهم كلام، وأدعو الله تعالى أن يوفقهم؛ إنما حديثى موجه لمن أضاع أوقاته فى ردهات الإنترنت بدون هدف صحيح منضبط، والله أعلم.

٣- التعلق بالبرامج المستقبلة بالأطباق الفضائية:

وهذا التعلق مظهر واضـح على الترف الثقافى، حيث نجـد نفرًا من الدعاة والصالحـين وطلبة العلم بحـجة البحث عن دقـائق الأخبار والتـحليلات، أو البحث عن البرامج الثقافية المتنوعة، تجدهم يتنقلون من قناة لأخرى، ويظلون ساعات طويلة -بسبب هذا- منقطعين إلى التلفاز، وقد يجرهم هذا إلى ما لا يحمد عقباه من النظر إلى العورات واستمراء ذلك واستسهاله، وفى هذا ما فيه من التأثير على إيمانيات الداعية، وتعلقه بتوافه الأمور وسفسافها.

والبحث عن الأخبار والتـحليلات أمر مهم لنفر معـين من إعلاميى الدعاة وسياسييهم خاصة، أما غـيرهم فقد يكون مرجحًا فى حقهم، ولكن على أى حال فـإنه ينبغى العناية بهـذا الأمر، ووضع خطة له بحـيث تُتجنب سلبـيات وسوءات هذه البرامج، وتتم الاستفادة منها على هيئة مكتملة تامة.

٤- التعلق بقضايا من الثقافة لا تعود على طالبها بفائدة:

وذلك نحو إدمان قـراءة كتب الأدب الماجن، والغزل المكشوف، وأخـبار فلان وفلان من الممـثلين والممثـلات، والمغنين والمغنيـات، الأحياء منـهم والأموات، والتعلق بالأخـبار التـاريخية التى لا تخـرج عن لغو القول وبـاطل الكلام، مثل أخبار مـا وقع من الفتن بين السلف رضى الله عنهم، ومثل أخبـار الأمم السالفة التى هى أشبه بالمستحيلات أو الخيـال، وتتبع غرائب القصص وعجائب الأخبار، وممجوجات الوقائع[١]، فهذا كله تضييع للأوقات، وترف محض لا خير فيه.

(١) وهذا مثل كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» المنسوب لابن إياس الحنفى، وهو غير كتب له آخر بالاسم نفسه، وهو كتاب تاريخى منضبط، أما الكتاب الأول فجُلُّه خرافات وأكاذيب

ثالثًا: الترف العلمي:

والمقصود به ها هنا هو التعلق بدراسة بعض العلوم التى لا فائدة -مباشرة- تعود على الداعية من ورائها، والانشغال بها عن دعوته والإصلاح المبتغى المرجو، ولقد رأيت بعض الدعاة ممن تخصصوا فى الدراسات العلمية التقنية أو المهنية، ولم يُحصِّلوا شهادات جامعية، رأيتهم يلتحقون بالجامعات فى تخصصات لا تمت لحياتهم العملية بصلة، ولا تعود عليهم بفائدة كبيرة فى حياتهم الدعوية، وذلك نحو التخصصات: علم الاجتماع، وعلم الإحصاء، والجغرافيا، والأدب الإنجليزى، إلى آخر هذه التخصصات التى ليس لمن التحق بها غالبًا غرضٌ إلا الحصول على شهادة جامعية كيفما اتفق، وفى هذا تضييع لأوقات الدعاة الغالية، وغمسًا لهم فيما لا يفيد دنيا ولا أخرى.

- **ومن صور الترف العلمى أيضًا**: تعلم بعض الدعاة والصالحين - الذين ليسوا من طلبة العلم الشرعى وباعهم فيه قصير- فروعًا من علوم الشريعة لا صلة لهم بها حاضرًا ولا مستقبلاً، وذلك كعلم أصول الفقه، وعكوفهم عليه شهورًا، ويدرسونه على مشايخ، ثم بعد الفراغ منه إذا بهم ينقطعون عنه، وهذا أمر متوقع؛ إذ لا تعلق لهم به فى حياتهم العملية الوظيفية، ولا نية لهم فى تدريسه، ولا يواصلون فى دراسة علوم تتعلق به، فتتصل دراستهم على وجه نافع مفيد، نعم، إن علم أصول الفقه مفيد لكثير من طلبة العلم، لكن ما حاجة من ذكرتهم إليه وهم بعد لم يندرجوا فى طلب العلم، ولم يتعلموا مهمات من العلوم قبل هذا العلم؟!

- **ومن صور الترف العلمى**: تحكيم المباحث الفلسفية فى العقائد الإسلامية، وهذا الفعل صار غالبًا على كتب عقائد المتوسطين والمتأخرين، فصار الطالب

لعلم ما فى تلك الكتب محتاجًا لشيخ مجيد متقن، ذى اطلاع واسع، وفهم ثاقب؛ حتى يقرأ عليه ما أشكل فيه، وهو كثير، بينما ينبغى أن يكون الأصل فى تلك الكتب العقدية السهولة واليسر والسلاسة، فالعقيدة الإسلامية من مزاياها الوضوح، والبعد عن التعقيد اللفظى والمعنوى، وعلى ذلك المنهج كانت كتب السلف فى العقيدة، فهى مليئة بالآيات والأحاديث والآثار[(١)]، ويقل فيها جداً أو يندر التعقيدات اللفظية والمباحث الكلامية الفلسفية، ومن اطلع اطلاعًا واسعًا على كتب من جاء بعد الحقبة السلفية والقرون الثلاثة المباركة عرف ما أعنيه وأريده، وعانى طويلاً فى فهم ما يريده المصنف وما يرومه، وظل متخبطًا فى مسالك ودروب لا تعود عليه بالفائدة المرجوة فى دينه ودنياه؛ أليس المقصود من كتب العقيدة أن تُعرِّف المرء بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذى يترك أثرًا فى النفوس، وعملاً صالحًا فى الجوارح؟ فأنا أجزم إذًا بأن الاطلاع على تلك الكتب لا يسمن ولا يغنى من جوع فى هذا، ولا يعود على القارئ بالأثر المحمود المطلوب، وتعلمه ترف علمى محض، ليس الطالب بمطالب به، وليس هو من علوم الآخرة الفاخرة، والله أعلم.

- **ومن صور الترف العلمي:** التعلق بغرائب اللغة، وما لم يعد مستعملاً من المفردات، وما صار مهجورًا مسترذلاً مستشنعًا سماعه وتداوله من الألفاظ، والإقبال على كل ذلك تعلمًا وتعليمًا، وإنفاق الساعات الطوال والغاليات فى فهمه وحفظه وسرده، وهذا كله وأمثاله -مما لا يعود على الأمة بخير- هو ترف محضٌ، وتكثرٌ وتقعر ينأى بنفسه عنه العاقل اللبيب، والفطن الأريب.

---

(١) انظر مثالاً: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للإمام اللالكائى رحمه الله تعالى.

خاتمة واقتراحات

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلقد طوفت فى مباحث متنوعة، وغصت فى طلب معان عميقة، وحاولت أن أستوفى الكلام عن هذه القضية المهمة، لكن هيهات هيهات، فإن الحديث عنها لا ينقطع، ومهما حاولت الحصر والجمع فلن أفلح إلا فى إبراز جوانب والغفلة عن أخرى، وحسبى ما ذكرت مذكرًا ونافعًا لى ولإخوانى وأخواتى، ومما أقترحه فى هذه الخاتمة ما يلى:

١- ألا يكون الكتاب قد قرئ على وجه التسلية وقضاء الأوقات، بل أرجو أن يستفاد منه فى تفادى الوقوع فى الترف، أو البحث عن كيفية النجاة لمن غرق فى بحره، وهذا دأب المؤمن، وديدن العاقل أن يستفيد دومًا مما يقرأ.

٢- قراءة هذا الكتاب قراءة متأنية فاحصة على النشء الصاعد، فعلى القائمين على الشباب والفتيات فى المراكز القرآنية والصيفية والدائمة، وعلى المعلمين والمعلمات فى المدارس أن ينشِّئوا من هم قائمون عليهم على مثل هذه المعانى الواردة فى هذا الكتاب وعلى غيرها، مما يستنبطونه أثناء رعاية أولئك، والقيام على شئونهم، وأحسب أن قراءة هذا الكتاب وأمثاله على أولئك يحصل بها نوع فائدة إن شاء الله تعالى.

٣- حبذا لو قام الخطباء والوعاظ في المساجد ومجامع الناس بإلقاء شيء مما ورد في هذا الكتاب على مسامع الناس، وتخير ما هو مناسب للعوام، أو التحوير ليناسبهم، فيلقي عليهم، فإني قد كتبت هذا الكتاب موجهًا حديثي إلى الطائفة العاملة الداعية إلى الله تعالى، لكن لا مانع من إلقاء بعض مباحثه على الجمهور؛ حتى تعم الفائدة به إن شاء الله تعالى.

٤- هناك بعض الأمثلة التي سقتها من حال السلف؛ وهي أمثلة رائعة، لكني أعلم أن الأخذ بها في هذا العصر قد يكون صعبًا أو مفضولاً، لكن إيرادها فيه خير كبير، والاستفادة العملية مما يمكن الإفادة منه مطمح راق وأمر جليل، عسى أن يتمكن منه إخواني وأخواتي ممن قرؤوا هذا الكتاب، ولا ينبغي أن يحبطوا أو ييأسوا عندما يقارنون أحوالهم بأحوال أصحاب الأمثلة المذكورة، بل ليتخذوها مطية لتعديل أحوالهم بما يمكن الوصول إليه من مراقي المعالي.

وأخيرًا: أذكر إخواني وأخواتي ونفسي أولاً قبل كل أحد أنه لن ينالنا الفلاح، ولن تفسح لنا الأمم مكان الصدارة والريادة، ولن نصل إلى ما نتمناه إلا بتوفيق الله تعالى وإرادته، ثم بالبعد عن الترف المهلك والمقعد عن المعالي، لابد أن يفهم هذا العاملون ويعيه الدعاة على اختلاف مشاربهم ومناهجهم، والله الموفق، وبيده مفاتيح كل شيء، جل جلاله.

هذا، والله تعالى أعلم وأحكم، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

❀❀❀

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١- «الذين لم يتزوجوا من العلماء وغيرهم، وأسباب ذلك، والنقض على من وحَّد السبب»: بكر أبو زيد، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٠٥هـ.

٢- «آفات على الطريق»: د. السيد محمد نوح، دار الوفاء، المنصورة، ط ٩، ١٤١٤هـ.

٣- «الأعلام»: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط ٥، ١٩٨٠هـ.

٤- «إتمام الأعلام»: د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.

٥- «أسباب سقوط الأندلس الاجتماعية والاقتصادية»: بحث للدكتور محمد رضوان الداية ومهجة الباشا، مجلة «بحوث جامعة حلب»، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد العاشر، ١٩٥٧م.

٦- «الإسلام ومشكلات الحضارة»: سيد قطب (ت: ١٣٨٦هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط ٥، ١٤٠٣هـ.

٧- «تاج العروس من جواهر القاموس»: الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) محمد مرتضى، تحقيق مجموعة من الأساتذة، مطبعة الكويت.

٨- تفسير القرآن العظيم: الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الشعب، القاهرة.

٩- «تقريب التهذيب»: الحافظ ابن حجر العسقلانى أحمد بن على (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: الأستاذ محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، ط ١.

١٠- «التكاثر المادى وأثره فى سقوط الأندلس»: د. عبد الحليم عويس، بحث منشور فى كتاب الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة ١٤٩٢هـ - ١٩٩٢م، الجزء الثانى، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، ١٩٩٣م.

١١- «خلق ودين»: د. إبراهيم سلامة، مكتبة البابى الحلبى، القاهرة، ط ١.

١٢- سنن الترمذى: أبو عيسى محمد بن سَوْرة (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

١٣- «شوقى ضيف؛ سيرة وتحية»: إشراف وتقديم: د. طه وادى، دار المعارف، مصر.

١٤- صحيح البخارى.

١٥- صحيح مسلم.

١٦- «صلاح الأمة فى علو الهمة»: د. سيد بن حسين العفانى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ.

١٧- «صيد الخاطر»: ابن الجوزى عبد الرحمن بن على (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: ناجى الطنطاوى وعلى الطنطاوى، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٣٩٩هـ.

١٨- «فتح البارى شرح صحيح البخارى»: ابن حجر العسقلانى أحمد بن على (ت: ٨٥٢هـ)، ضبط عدد من الأساتذة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

١٩- «الفتح الربانى بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى»: أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.

٢٠- «فضائل بيت المقدس فى مخطوطات عربية قديمة»: د. محمد إبراهيم، معهد المخطوطات العربية، ط ١، الكويت، ١٤٠٦هـ.

٢١- «فى ظلال القرآن»: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط ١١، ١٤٠٢هـ.

٢٢- «قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة»: الإمام القرطبى محمد بن أحمد (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: مجدى السيد، دار الصحابة، طنطا، ط ١، ١٤٠٩هـ.

٢٣- «لسان العرب»: ابن منظور الإفريقى محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.

٢٤- «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: أبو الحسن الندوى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ٦، ١٣٨٥هـ.

٢٥- مجلة الأزهر: تصدر عن مشيخة الجامع الأزهر، مصر.

٢٦- مجلة الرسالة: مجلة ثقافية أدبية، كانت تصدر فى مصر ثم توقفت.

٢٧- مجلة لواء الإسلام: مجلة إسلامية ثقافية اجتماعية، كانت تصدر فى مصر ثم توقفت.

٢٨- مجلة المجتمع: إسلامية أسبوعية تصدر عن دولة الكويت.

٢٩- مجلة المنطق: لبنان، العدد السادس والثلاثون، ١٤٠٨هـ.

٣٠- «المرأة فى الإمارات؛ تحديات التعليم والعمل وأخذ القرار»: هند القاسمى، جمعية الاجتماعيين.

٣١- «معجم مقاييس اللغة»: ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة البابى الحلبى، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

٣٢- «المعجم الوسيط»: إعداد مجمع اللغة العربية، القاهرة.

٣٣- «واقع الشباب فى الإمارات»: تأليف مجموعة من الدكاترة، جمعية الاجتماعيين، الإمارات، ط ١، ١٩٩٦م.



الفهرس

الموضوع | الصفحة

صدر للمؤلف

١- تحقيق ودراسة كتاب التلخيص فى القراءات الثمان، للإمام عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى -رسالة ماجستير.

٢- إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطى والعلماء، دراسة مقارنة -رسالة دكتوراة.

٣- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء (١/ ٤).

٤- المختار المصون من أعلام القرون (١/ ٣).

٥- مختصر الروضتين فى أخبار الدولتين.

٦- استجابات إسلامية لصرخات أندلسية.

٧- مختصر الفتح المواهبى فى مناقب الإمام الشاطبى.

٨- الطرق الجامعة للقراءة النافعة.

٩- حصول الطلب بسلوك الأدب.

١٠- التنازع والتوازن فى حياة المسلم.

١١- الهمة طريق إلى القمة.

١٢- الثبات.

١٣- أثر الدعاء فى دفع المحذور وكشف البلاء.

١٤- عجز الثقات.

١٥- تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء.

١٦- المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية.

١٧- المقالات النفيسة فى الحج إلى مكة والمدينة الشريفة.

١٨- مقالات الإسلاميين فى شهر رمضان الكريم (١/ ٢).

١٩- العاطفة الإيمانية وأثرها فى الأعمال الإسلامية.

٢٠- التدريب وأهميته فى العمل الإسلامى.

٢١- التوريث الدعوى.

٢٢- العبادات القلبية وأثرها فى حياة المؤمنين.

٢٣- معجم المصطلحات والتراكيب والأمثال المتداولة.

٢٤- ظاهرة التهاون فى المواعيد.

٢٥- القدوات الكبار بين التحطيم والانبهار.

٢٦- التقارب والتعايش بين غير المسلمين.

٢٧- كتاب الترف وأثره فى الدعاة والصالحين.

٢٨- مجموع فتاوى القرآن الكريم.

٢٩- مصطلح حرية المرأة بين كتابات الإسلاميين وتطبيقات الغربيين.

٣٠- نماذج تاريخية معاصرة من مآسي الافتراق وأثر ذلك على الأمة.



المؤلف في سطور

د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف:

* من مواليد جدة عام ١٣٨١هـ، وأسرته من المدينة المنورة، ويتصل نسبهم بآل بيت النبي ﷺ.

* يعمل حاليًا -كابتن طيار- في الخطوط الجوية السعودية.

* ويعمل كذلك أستاذًا متعاونًا بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة.

* بكالوريوس الشريعة ١٤٠٨هـ، كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

* ماجستير في الكتاب والسنة ١٤١٢هـ، كلية الدعوة وأصول الدين، بجامعة أم القرى.

* دكتوراة في الكتاب والسنة ١٤١٧هـ، كلية الدعوة وأصول الدين، بجامعة أم القرى.

* لديه إجازة في رواية حفص من طريق الشاطبية والطيبة، ويدرس القراءات العشر.

* عضو لجنة اختيار الأئمة والمؤذنين، بوزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، بمدينة جدة سابقًا.

* عضو الهيئة التأسيسية للهيئة العالمية للقرآن الكريم، وعضو مجلس إدارتها.

* عضو لجنة الدعوة والقرآن الكريم بهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية.

* إمام مسجد الإمام الذهبى بحى النعيم، وخطيب مسجد التعاون بحى الصفا بمدينة جدة.

* يعد ويقدم العديد من الندوات الشرعية والتربوية بالتليفزيون السعودى.

* له مقالات عديدة فى صحيفة المدينة السعودية.

* درّس كتاب (التحبير) فى علوم التفسير للإمام السيوطى.

* ودرّس كذلك المقدمات العشر لتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

* له درس بمسجد التعاون كل يوم جمعة بعد صلاة العشاء فى تفسير القرآن الكريم.

